رواية لليافعين

الطائر الزجاجي



دار الأوطان

أحمد دليل

إصدارات دار الأوطان، 2016.
ر.د.م.ك: 978-9931-593-36-2.
الايداع القانوني: السداسي الأول، 2016.

دار الأوطان للثقافة والإبداع

الطائر الزجاجي /رواية لليافعين.
أحمد دليل.
القياس: 20/13.5.
دار الأوطان للثقافة والإبداع-الجزائر.
الهاتف: 10 23 67 770(213+).
البريد الإلكتروني: yahiaoui.2011@live.fr

القُصَاصَةُ الأخِيرَة

وقفَ الصّبيَ «فَارَاجِي»، ذو الخمسة عشر ربيعاً، قُبالة المرآة متطلّعاً إلى هالة الاحمرار التي طرأت على عينه اليسرى. كان في وسعه أن يرى، رغم لون بشرته الدّاكن، أثرَ الكدمة على طرف جبهته. بدت متورّمةً بحيث لم تعد ملامح وجهه الباذنجاني سويّةً. شعرَ للحظة أنّ انعكاس صورته في المرآة لا يقلُّ عنه تعاسةً وطفق يتحسّسُ صدره النّاضح بألمٍ لم يتسنّ له تحديد موضعه بالضبط. أرهفَ سمعه إلى ما يحدث في الطّابق السّفليّ. لم تعدْ تتناهى إليه أيّ أصواتِ عبر باب غرفته المغلق، فخمّن أنّ «العَاليَة» قد أخلدت إلى النّوم منذ زمنٍ غيرِ يسير، أمّا هو فقد استعصى عليه الهجُوع إلى فراشه رغم فتوره.

كانت فورةُ الغضب التي اجتاحته منذ الظّهيرة ما تزال تستعر بداخله. لا يذكر أبداً أنّها انهالت عليه ضرباً بمثل الفظاعة التي ارتكبتها نهار اليوم. كان أقسى من الضّرب ألاّ تسمح له بالبكاء. بَدَتْ وكأنّها لعنة تهبط عليه من السّماء دون أدنى نُدحَة للرّحمة، أو كأنّ شيئاً بالغ السّوء يُكشِّرَ عن أنيابه بداخلها. شيءَ لم يعهد تلبّسهُ بها قطّ، رغم سنين سخطها الطّويلة.

أجالَ بصرهُ في أرجاء الغرفة حيث تناثرت جلُّ أغراضه، بينما انطرحت محفظته بمحاذاة السّرير وقد تَكَبْكَبَت محتوياتها. كان هو نفسه من أثار هذه الفوضى، دون أن يجدي الأمر طائلا إزاء الغصّة التي تسدُّ حلقه. خَبطَ بقبضة كفِّه زرّ الإنارة ليطفئه، ثمّ حمل بعض كراريسه وراح يمزِّقُ أوراقها في حَنَقٍ وسط الظّلام، قبل أن يتّجه نحو النّافذة ويفتحها على مصراعيها قاذفاً بالنّتف الممزّقة صوبَ الشّارع. أنهكهُ ذلك إلى حدّ ما ولكنّه نَفّسَ عنه نزراً يسيراً من إحساسه بالمرارة. أخذ يتتبّع القصاصات الصّغيرة ببصره وهي تتهادى وسط باحة البيت الخلفيّة، تحملها هبّات الهواء قليلاً ثم ترسلها إلى الرّصيف المهترئ على طرف

الشَّارع. أحسّ أنَّ تلك النّتف الورقيّة أكثر سعادةً منه، فهي على الأقلّ تذهب حيث تريد. أمّا هو، فعليه أن يتحمّل كلَّ يومٍ عبارات السّخريّة اللّاذعة دون أدنى أملٍ بغدٍ أقلَّ إيلاماً.

أمعنَ النّظر إلى السّماء المطموسة بغيومٍ داكنة، فَزاد إحساسه العميق بالكآبة. ظلَّ يقفُ متجهّما قُبالة النّافذة وطفرت الدّموع من عينيه أكثر من مرّة. خمّنَ أنَّ ما حدث معه اليوم كان قاسياً كفاية كي يدفعه إلى اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ يجتثّ آلامهُ المتراكمة دفعةً واحدةً.

لم تكن الحياة مريرةً معه بهذا الشّكل على الدّوام. كان يستمتع قبل دخوله المدرسة بأيّامٍ ملؤها اللّعبَ كسائر أترابه. ربما انفرد بميلٍ واضحٍ إلى الصّمت، لكنّه لم يحبذِ العُزلة أبداً. جزم بعضُ شيوخ الحي، ممّن يحشرون أعجازهم في زوايا الأزقّة منذ شروق الشّمس حتّى غروبها منشغلين بإبداء الرّأي في كلِّ شاردة وواردة، أنَّ بالصبيَ مسّا من الجِنّ. جعلوا يترصّدونهُ وهو يحدّقُ إلى الأشياء مطوّلاً دون أن يبدو لهم أنّه يراها، غيرَ أنَّ طبيباً مجهولاً كان في ضيافة أحدهم، بتَّ في الأمر قائلاً أنّ الصبيَ مصابٌ بمرضٍ نادرٍ يُدعى «البَكم الاختياري»، على أنَّ أحداً ما لم يفهم ما قاله الطَّبيب المجهول.

كان فاراجي قد اعتاد سماع الصَّبية ينعتونه بالبلادة دون أن تستثيره أيّ رغبةٍ في الردّ عليهم، إذ يكتفي برسم ابتسامةٍ بلهاء على محياه، مع أنَّ صدرهُ كان ينقبضُ حين يسمع مثل تلك النّعوت من أمّه «العالية» وهي تزبدُ وترغي أثناء فوراتِ غضبها الحادّ.

لم تنقلب حياته رأساً على عقب إلاّ حينما التحق بالمدرسة. تبخّرت غبطتُه الطّفوليّةُ بمحفظته وهندامه الجديدَين في غضونِ أيّامٍ معدودة، وألفى من العسيرِ عليه استيعاب ما يدرسه من معارف غريبة. لم يكن مُدرّسهُ «مُوح المرابِط» يُبدي حماسةً للاستفاضة في الشّرح، قدرَ ما يبديها في قضاء شطرٍ غيرِ يسيرٍ من زمن الدَّرسِ في تَسفيهِ سُلوكاتِ مُدير المدرسة. كان ذلك يُضايق فَاراجي وينضمّ إلى

جُملة مصاعبه في التّأقلم مع هذا المحيط الذي أضحت أنشطة القراءة أعوصَ ما يواجهه فيه.

لم يكن صَفُّه يضمّ أزيد من ثلاثة عشر تلميذاً، فقد هرع جُلّ الأهالي لتحويل أبنائهم إلى المدرسة الجديدة، لأسباب لا تخفى على أحد، إذ أنّ الشّقاق الذي دبّ بين غالب قاطني البلدة من أحفاد «المرابطين» وأقليتها من السّودِ، قد ذاعَ صيته وغدا حديث القرى المجاورة.

كان «المحفُوظ» شقيقُ العالية أحد أهمّ أطراف هذا الخلاف بصفته مديراً للمدرسة القديمة وأحد القلائل من ذوي البشرة الدّاكنة، الذين أنهوا دراساتهم الجامعيّة. كما أنّه لم يدّخر جُهدا للوقوف نِدّاً في وجه بعض المرابطين. كان ينسب إليهم علناً جريرةَ إذكاء شتّى صنوف العنصريّة العرقيّة، وتدهور أوضاع البلدة برمّتها.

تجاوز فاراجي المرحلة الابتدائية من تعليمه بأعجوبةٍ مُخزية، تمثّلت في تدخّل خاله المدير أكثر من مرّة لتغيير علاماتِ كُشوفه خفيةً. لم يكن المحفوظ يحتمل أن يعيّره الشامتون بابنِ أخته الأبله، بعدما رآه يرسب لسنتين على التّوالي. لم يعزب عن باله أنّه لن يتمكّن من مساعدته إذا ما انتقل إلى مرحلة التّعليم المتوسّط. توصّل بعد طول تخمينٍ إلى أنّه في حال رسب الصبيّ هنالك وهو أمر مُرجّح، فسيكون في وسعه الادّعاءَ أنّ غُرمائه من المرابطين يمارسون إقصاءهم لابن أخته نكايةً فيه.

لم ينتبه أحدٌ لحقيقة أنّ شيئاً ما تحطّم بداخل الصبيّ إبّان سنيّ تعليمه الأولى. شخصٌ واحد فقط حاول مساعدته حينها، دون أن يفلح، تمثّل في المستشارة النّفسانية الشّابّة التي انتدبتها المدرسة من مركز الولاية لموسمين. كانت قد تحدّثت، بإيعازٍ من المدير، إلى الصبيّ على فترات، قبل أن تقرّر استدعاء والدته.

بعد بضعة أيامٍ استجابت العالية للدّعوة، وراحت المستشارة تُسرّ إليها في

تأثرٍ بالغ، يشي بكونها قد توصّلت أخيراً إلى اكتشاف دقيقٍ مفاده أنّ الصّبيّ ليس مصاباً بتخلّفٍ ذهنيّ كما يعتقد الجميع. هزت رأسها واثقة حين قالت،

- إنّه يعاني من «الدسليكسيا»...

و فسّرت ذلك بكونه مرضاً نفسياً يتعلّق بصعوبات القراءة، كما جزمت أنّ لهذا المرض علاجاً لكنّه يتطلّبَ السّفر بالصّبيّ بعيداً عن البلدة.

غادرت العالية وهي تخّمن أنَّ الفتاة الشّابة التي استدعتها تعاني اضطراباً ما بسبب كثرة حديثها، مع أنّها بدت طيبة السّريرة صادقة النّصح. كانت تدرك أن دخلها المحدود من أعمال التّنظيف بالمدرسة لن يسعفها للقيام بأيّ سفرٍ. رغم هذا فقد سَعت لشهورٍ متواليةٍ كي تحصل على مالٍ يغطّي مصاريف العلاج المحتمل. لم تُفلح جهودها ولا جهود المحفوظ الذي كان أكثر انشغالاً بالتّصدي لما يُحاك ضدّه من مكائد منذ استلم منصبه. شعرت العالية بعد زمنٍ أنّها استُنزِفت من فرط جرّ أذيال الخيبات المترادفة وركنت للتّسليم بأنّها رُزقت ولداً ينقصه شيء ما وأنَّ هذه ليست نهاية العالم. كان مما أسهم في طيّ الأمر كون الصبيّ قد كفَّ بشكل مفاجئ عن الرّسوب في المدرسة الابتدائية، وانتقل لاحقاً إلى المرحلة المتوسّطة دون كبير عناء.

الواقع أنّه ما فتئ نفور فاراجي من الدّراسة يستفحل عاماً بعد عام. كانت قناعته بعدم قدرته على اكتساب المعرفة تتراكم في قاع سنوات رسوبه ونجاحاته المزيّفة، لتطفوَ على السّطح رغبته العارمة في ترك المدرسة نهائياً دون أدنى ميل للتّراجع عن هذه البغية.

بدت علاماتُ كُشوفه مع بداية المرحلة المتوسّطة متردّية إلى حدٍّ لافت، وتعاقبت نتائجه المخيبة اطّراداً. دأبت العالية على توبيخه أيّاماً متواليةً في أسوأ الأحوال وربما ألزمتهُ بالرّكون إلى غرفته وبذل الجهد في المذاكرة، غير أن ردّةُ فعلها هذه المرّة تجاوزت ما اعتاده منها بأشواط كبيرة.

كان قد تناهى إلى سمعها عزمُ مدير المدرسة المتوسطة على إمضاء قرار طرده مع نهاية السنة في حال رسب للمرة الثالثة توالياً، فدفعها الأمر إلى حافة الجنون من شدة الغيظ. شعر الصبي وهي ترفسهُ بقدميها مستشيطةً غضباً، أنها تُطفئ فيه جمرة إحساسها العميق بالقهر، بعدما أصبح خاله عاجزا عن مساعدتها أو مساعدة نفسه وهو طريح الفراش إثر حادث مشؤوم.

كانت أغلب قُصاصات الورقِ التي قذف بها فاراجي عبر نافذته قد أسلمت نفسها لنسائم هزيع الليل، عدا واحدة ظلت تلتفُّ حول نفسها على الطريق الإسفلتي المقابل، تأخذها هبة هواء لبرهة، ثم تعود لتكرر التفافها وكأنها تُغريه بالمجيء معها. عندئذ التمعت بذهنه فكرة الهروب. لم يكن يملك أيّ ذريعة تحضُّه للعدول عن فكرة غريبة كهذه. قدَّر أنه لم يعد ثمة شيء يخشى فقدانه وأنه غدا ناضجاً كفاية كي يسعه الرحيل بعيداً. قد يجد بلدةً أخرى تفتح له ذراعيها وتمنحه حياة أقلَّ نكداً. لم تقو لحظات تردده القصيرة على الوقوف في وجه رغبته الطارئة وأقنع نفسه أنه كيفما ستغدو أيامه حيث يذهب، فإنها ستكون أفضل لا محالة.

اقترب من باب غرفته وتأكد أنَّ البيتَ يَرينُ في كَنَفِ السكينة، قبل أن يفرغ ما تبقى في حقيبته المدرسية بحذر. لم يلمس زرَّ الإنارة تلافياً لإثارة أيِّ شبهة. اكتفى بما يصل من إنارة أعمدة الشارع، كي يلملم بعض ثيابه وأغراضاً أخرى لم يكن متأكّداً من جدوى أخذها معه. لم ينس حصالته المعدنية التي تحتوي كلما استطاع ادخاره من قطع نقدية على مر شهور. كان يخطط لشراء دراجة هوائية، لكنه الآن لن يستعين بها سوى على انعتاقه والخروج من هذه البلدة التي صارت رتابتها الموجعة تثير فيه إحساساً عميقاً بالبؤس. حمل الحقيبة على ظهره وهبط عبر نافذة غرفته في الطابق الأول، متشبثا بنتوءات الجدار. لم يكن تسلُّق الجدران صعوداً أو نزولاً أمراً عسيراً عليه، فقد تعوَّد منذ مدة أن يدخل غرفته على هذا النحو تجنباً لتقريع العالية.

- إلى هنا أيها الأبله! أخبرني ماذا تعلَّمت اليوم من الحقول، فأنا متأكّدة أنك

لم تذهب إلى المدرسة!

صار يضيق ذرعاً بتذمّرها طوال الوقت. لاحظ أنّها غدت أكثر فظاظةً معه منذ دخوله المدرسة المتوسّطة أو ربّما منذ حادثة خاله المحفوظ. لم يكن متيقّناً، لكنّه أحسّ تبرّمها بكلّ شيء، وكأنّما خُلقت لتتبرّم.

كان أمرا واقعاً أنّه لم يعد يذهب إلى المدرسة إلاّ لَماماً. كان يجد في الشّوارع والحقول ما يسلّيه أكثر، إذ يبدو له العالم هناك أقلّ وحشةً. لم تكن لديه أيّ صداقاتٍ عدا صداقته الغريبة بزميلٍ له يدعى «رمضان». مع ذلك فإنّ معظم أترابه كانوا يعرفونه بفضل الدّعابات الرائجة حول بلاهته. لم يكن بعضهم يتوان في اختلاقها وسردها بحضوره أحياناً، دون أن يُبدي فاراجي ردّة فعل تجاه الأمر، وهو ما يعتبرونه بلادةً صرفةً.

- هذا الولد غبيّ إلى حدّ مهولٍ!.. حتّى أنّه يمكن لمس غباءه باليد المجرّدة!

لم يكن فاراجي يحفل كثيراً باستهزائهم. شيءٌ ما بداخله جعل يحثّه على تقبّل الأمر بتجاهلٍ باردٍ. لعله كان يجد عزاءه في اللحظات التي يقضيها مع رمضان في صيد العصافير. كانا يقصدان حقول البلدة وينصبان أفخاخهما التي صنعاها من بقايا أسلاك مختلفة الألوان والأحجام. لم يعودا أبدا سوى بأياديهما الفارغة. لم يكن حظهما بائسا في الصّيد، إنّما دأبا على تحرير ما يقع بين أيديهما حالما يمسكانه. كانت لحظة إطلاق الطّائر هي ما يصنعُ بهجتهما.

حين لا يكون برفقة صديقه في الحقول، كان فاراجي يجوب أرجاء البلدة أو يشهد في صمتٍ جزءا من جُملة الألعاب التي يشغل بها صبية الحيّ أوقات فراغهم الكثيرة. في أحايين نادرة، كان يملأ شدقيه بالضّحك حين يقع أمر طريفٌ. لم يخلُ ذلك من المخاطرة، مثلما حدث يوم أن حاول فتىً مشاغبٌ ابتكار مراوغة مميّزة بالكرة وانتهى الأمر بحدوث شرخٍ هائلٍ في سرواله. ضحك الحاضرون جميعاً، لكنّ المشاغب وقف واتجه رأساً صوب فاراجي لينتصب قبالته سائلا بنبرة

متحدِّيةً،

- لِمَ تضحك أنت؟!

قال ذلك قبل أن يتناول خدَّي الصّبيَ بصفعتين متزامنتين ترقرقت إثرهما عيناه بالدّموع فحاول أن يستوعب ما جرى قبل أن يثوب إليه وعيه تماماً، غير أنَّ لكمةً حانقةً أرسلته إلى حالة إغماء سبقتها موجةُ صفيرٍ حادٍّ وتلاها ظلامٌ مطبق.

لا يزال يذكرَ كَمّاً هائلاً من الأحداث المشابهة، لكنَّه مذ فاض به الألم، شعر أنَّه لا يُكنُّ الضّغينة لأحد، بقدر ما يحتاج للابتعاد عن والدته وعن صبيان الحيّ وعن المدرسة وعن البلدة برمّتها.

ما إن لامست قدماه الأرض حتّى لَقِفَ القُصاصة الأخيرة بيده في خفة ثمّ تسلّل على نحوٍ غيرِ محسوسٍ، مبتعداً عبر الشّارع المتاخمِ للمنزل. كان يشعر بنشوةٍ غريبةٍ تغمر صدره وقد غدا في وسعه أخيراً أن يقذف وراء ظهره كلَّ ما سبّب معاناته. أحسّ منذ اجتاز مشارفَ الحيّ أنَّه يُلقي بنفسه في أحضان الحرّية المطلقة، مع أنَّ هذا الشّعور النّابضَ شَابَهُ انزعاجٌ طفيفٌ نَجَمَ عن عدم معرفته إلى أين سيذهب بالضّبط.

التِّلالُ الصَّخرِيَّة

كان فَاراجي يدركُ ضرورةَ الابتعادِ بأقصى ما في وسعه، دونَ أنْ يُثير ريبةَ أحد. فكّر لوهلة أن يُيَمِّمَ شَطرَ الحقول التي تنأى قليلا عن البلدة، حيث يسعهُ أخذُ قسط من الرَّاحة ليَقرِّر بعدها في هدوء أيّ وجهة سيختار، لكنّ الشوارع بَدت له حالكةً بشكل غير معهود. خمّن أنَّ الحقول ستكون أكثر إثارة للرّوع بسبب الكلاب المشرّدة.

في خضمِّ سيره الحثيث منشغل البال، التفَّ في أحد الأزقة فوجد نفسه يقف واجماً قُبالة «عَاشُور» أخرقُ البلدة. كان عاشور بهامته الفارعة وأسماله الرَّثَّة يبدو كجملٍ هائلٍ ترَهل جسده من فرط الهرم. قفز قلبُ الصبيّ إلى حلقه فَرَقَاً واستعصى عليه الإتيان بأيّ حركة. بدا كقطٍّ انبهر بنورٍ قويٍّ جدَّاً. هرش المجنون لحيته الكثَّة المليئة بالأتربة وجَرّ قضيباً حديدياً من أسلاك البناء لا يفارق يده أبداً. كان يستعمله عادة ليطارد نوى التّمر المندَسّة بقارعة الطّريق، صاباً عليها جام غضبه وهو يحادثها لدقائق كأنَّها تعي سخطه، ثم يصرخ بكلام تتجاوز بذاءته كُلَّ الحدود ويهوي عليها بطرف قضيبه.

- أخرجي يا ملعونة!.. تختبئين في الظُّلمات، ولكنَّ قدرك لا يعوزه النور!

تتطاير ومضات الشَّرر من شدَّة ارتطام القضيب بالإسفلت المتشقِّق، قبل أن تتحوّل النَّواة إلى شظايا متناثرة. لم يشَّكل عاشور خطراً على السّكان يوماً، مع أنَّ وجوده كان يزرعُ الرَهبة في نفوس الكثيرين، وحتى حينما استفحل الشِّقاق العرقيّ بين الأهالي، ظلَّ الفريقان يعتبرانه طرفا محايداً. كان الجميعُ يدرك أنَّه قد اختارَ صراعه مع النّوى، غير آبه لما يجري حوله، مع أنَه استوقف المحفوظ يوماً على مرأى ومسمع ثلة من الفريقين وأطالَ النَّظر إليه قبل أن يقول شيئا أثار لغط الحاضرين ولبث عالقا في أذهانهم زمنا.

- إنّك سيّدهم جميعاً... ولكنّ هذا لن ينفعك حين يلوكُك الحَديد!

قال ذلك ثمّ واصل طريقه يفحصُ الأرض بقضيبه. طوال شهورٍ لاحقة لم يسمعه أحدٌ يتحدّث عن أيّ شأنٍ من شؤون الأهالي، حتى انتهى أمره ذات ظهيرة صيف بالعثور على جثّته في مفازةٍ جرداء بعيداً عن البلدة وقد تكدّست قرب رأسه كومةٌ هائلةٌ من نوى التّمر.

شعرَ فاراجي وهو يقف مذعوراً، لا تفصله سوى خطوتين عن المجنون، أنّ الهلعَ يشلُّ أوصاله. راح عقله يلوب فيما قد يحدث. ربّما وجّه إليه ضربة فتّاكة بقضيبه دونما سببٍ يُذكر، أو ربّما اعتقد أنّه أحدُ الصّبية الذين يرشقونه بالحجارة أحيانا، فيثور ويلاحقهم عبر الأزقّة الطينيَة الضيّقة. لكن عاشور مكث يتفرّس باستغراق وجه الصّبيّ الذي احتاج جهدا خارقاً كي يُفلح في التّراجع خطوة إلى الوراء، قبل أن يسلم ساقيه للرّيح، مُمعناً في الرّكض بعيداً بأقصى ما وسعت قدماه. بقي المجنون منتصباً مكانه وقد علت وجههُ ملامح بلهاء، هي أقرب للدّهشة من أيّ شيء آخر.

عَدا فاراجي باستماتة، ذكّاها صليلُ اهتزاز النّقود في حقيبته فلم يزده ذلك إلا جزعا، مع أنّه التفت إلى الخلف أكثر من مرّة دون أن يلمح شيئا يلاحقه. لم يكبحه إلاّ مواءَ حادّ لهرّ داسه بقدمه في الظّلام، فتعثّر وسقط على الأرض مرتاعاً، بينما فرّ الهرّ بجلده وهو يحاول جاهداً أن يتشبّطَ جداراً أملسا بعد أن استولت عليه فورة فزع.

كان جسد الصبيّ ينضح عرقاً، ووجيب قلبه يوحي بأنّه سيخرج من صدره. بالكاد وسعهُ ما يشفط من هواء إلى رئتيه، واقتضى الأمر منه زمنا كي يستعيد أنفاسه. دفعه ما حدث إلى التّفكير بجديّة في أمر وُجهته. لم يَهده طول النّظر إلى خيارٍ قاطع، لكنّه قرّرَ في النّهاية أن يخرج إلى الطّريقِ الرئيسيّ المعبّد الذي يتطلّب الوصول إليه مسيرةَ ساعةٍ تقريباً. أزمعَ انتظار حلول الصّباح هنالك، حيثُ تشرعُ حركةُ المرور في النّشاط ويتهيأ له حينها أن يستقلّ حافلة نقلٍ للهربِ أبعد ما

يستطيع.

سار على طولِ الطَّريق التّرابيَ المؤدّي إلى خارج البلدة، وقد غدت أضواءها تتراءى خلفه لكأنّها تتراقصُ متداخلةً شيئا فشيئا كُلّما ابتعد عنها. بعثت فيه ظُلمةُ اللّيل إحساساً بالوجل من شيء لم يدرك كُنْهَهُ، فتطلّع إلى السّماء وبدا له أنَّ الغَيمَ تكشَّف عن نجومٍ أكثر عدداً وألمع ألقاً من المعتاد. لم يكن هناك بدرٌ يُبدِّدُ نُورهُ وحشتهُ. تهيأ له لبرهة أنّه يسمع وَقعَ خُطى تدبَ خلفهُ في احتراس، لكنّه استمسك برباطةِ جأشه وواظب السّيرِ حتّى وصلَ إلى الطَّريق المعبّد. كان يعرف المكان من خلال محطّة انتظار لا تعدو أن تكون مُجرّد مقصورةٍ إسمنتيّة دون باب، يلوذُ بها المسافرون للاحتماء من حرِّ شمسِ الظّهيرة القائظ وبرد الصباحات الصّرِيدَة. دَخلَ واقتعد الدّكانةَ الممتدَّةَ على طولِ الجِدارِ، ثمّ راحَ يتحسّسَ مفاصلهُ وقد أوكَح المشيَ قَدمَاه.

كان يسرح بفكره فيما يتوجّب عليه فعله، حين قاطع خلوته صوت جَلجَلة تقترب. وقف وخرج مستطلعا. أعشت بصره أضواءَ مصابيح ساطعة، خمّن أنّها لسيارةٍ قادمة. أشاحَ ببصره عنها فوقعت عيناه على اللّافتة التي تشير إلى بلدته وقد كتب عليها بخطّ أزرق سميك «إيكيس». لطالما دفعه اسم بلدته إلى التّشاؤم. ظلّ يرقب الأضواءَ حتى غدت على مسافة قريبة وخفَّفَت سرعتها كي تتجاوز حدبةً مهترئةً أقيمت على الطّريق عمداً كي تفرض على المركبات المتهورة تخفيض سرعاتها أثناء مرورها بالمحطّة. تبيّن له أنّها لم تكن سيّارة صغيرة، بل شاحنةً ذات مقطورةٍ طويلة. سبق له أن رأى شاحنات مشابهة لها تفرغ حمولتها وسط البلدة. تذكّر أنّه كثيرا ما رأى الصّبية يركضون خلفها محاولين التشبّث بها وهي تسير. بدا له حينها أنّ الأمر يثير فيهم إحساساً غامراً بالمتعة. لكنّ هذه الشّيطنة كثيرا ما انتهت بسقوط أحدهم أو بحدوث ورطةٍ أخرى تعكّر صفو مغامرتهم. تارة يلاحقهم أحد المارّة ويردعهم، وتارة يتفطّن السّائق للأمر فيضغط المكابح بغتة وينزل ليلاحقهم مالئا فاه بصنوفٍ من الشّتائم، تطالهم وتطال كلَّ من تركهم يعبثون في الشّوارع دون رقيب. جال كلّ هذا بخلده وحدّث نفسه أنَّه ما كان

ليتوانى عن التّشبّث بالشّاحنة كي تنقله معها حيث شاءت، لكنّها ابتعدت عنه بمسافة لا تسعفه للّحاق بها. همّ بالعودة إلى المقصورة قبل أن يلمح أضواءَ يُصاحبها نفسُ الهديرِ. كانت شاحنةً أخرى دون ريب وقد أزمع التّشبّث بها. دخل المحطّة على عجلٍ وربط حقيبته بإحكام إلى ظهره، قبل أن يخرج ويتوارى متحينا لحظة تخفيضِ السّرعة.

انطلق بجسدٍ يتدفّقُ خفّةً وهو يركض بكل ما أوتي من جهدٍ خلف المقطورة، قبل أن يفلح في التّشبّث والشّاحنة تواصل سيرها الوئيد. لم يكترث لأيّ وجهة ستقوده، بل غمرتهُ فورة من السّعادة بعد أن صار في وسعه الابتعاد أكثر، دون الحاجة إلى انتظار الصّباح ودون أن يصرفَ شيئاً من نقوده المدّخرة.

جعلَ تَيارُ الهواء القويّ يصفقُ وجههُ، بينما ترفرف عباءته مُحدثةً صوتاً أشبه بفرقعة الأصابع. أحكم قبضتيه متمسّكاً وقد تزايدت سرعة الشّاحنة رويدا رويدا. فَغَرَ فاهُ محاولا عبّ الهواء المندفع فمنحهُ ذلك تسليةً شغلتهُ عن نوبات القلقِ الخفيفِ التي تطرأ عليه كلّما تمايلت المقطورة بعجلاتها عند حُفر الطّريق البالي، فيقعقع هيكلها مُصدراً صريراً يوحي بأنّها قد تتشتّتُ في أيَ لحظة.

لم يدبّ الهلعُ في نفسه بجلاء إلاّ بعدما أصبحت الشّاحنة تسير بسرعةٍ كبيرة. حاول النّظرَ إلى الطّريقِ تحت قدميه، بيدَ أنّ الإنارة الضّعيفة للأضواء الخلفيّة لم تسعفه كي يرى بوضوح. كان يدرك مدى خطورة أن يلقي بنفسه في هذا الظرف، إذ لا يزال يذكر النّدبة التي تركتها محاولة قفز فاشلة على رأس صبيَ من صبيان الحيّ.

أخذ يستبدّ به الجزع وشعر بالوهن يتسلّل إلى مفاصله شيئا فشيئا. خمّن أنّه بالكاد سيقوى على التّمسك لبضع دقائق أخرى قبل أن يهوي. طفق يتوسّلُ من أعماق قلبه كي تتوقّف الشّاحنة، ثم تحوّلت توسّلاته إلى صراخٍ هائجٍ، لكنّ موجة الهواء المتدفقِ كانت تأخذ صرخاته بعيداً إلى الوراء. ظلّ يصارع ذعره دونما أملٍ في أن يسمع توسلاته أحد. في اللّحظة التي شعر أنّه لم يعد يقوَ على بذلِ

أدنى مزيدٍ من الجهد، وأنّه سيفلت كفّيه مُسلماً نفسه لسقطة قد يتجاوز ألمها ما يمكنه تصوّره، شرعت سرعةُ الشّاحنة في التّناقص بشكلٍ ملحوظ. انبعث في نفسه أملُ النّجاة، فتمسّك بكل ما استجمعَ من قوّة.

بعد زمنٍ يسير لم تكن الشّاحنة قد خففت سرعتها فحسب، بل إنها توقّفت تماماً. دفعه الفُضول ليُطلّ برأسه نحو المقدّمة. كان متأكّداً أنّ السّائق لم يسمع صرخاته وإلّا كان قد توقّفَ منذ مدّة. لمحَ أضواء تتحرك قرب ما يُشبهُ مقصورةً ضيّقةً على قارعة الطّريق، بينما يتبادلُ أحدهم أطرافَ الحديث مع السّائق. استطاع أن يميزَ زيّ دركيٍّ يتمنطق رشّاشه. بعد برهة، لاحظَ من خلال حركة مصباحٍ في يد الدّركي أنّه أخذ يسير صوبَ مؤخّرة المقطورة. أدركَ أنّ من الحكمة أن يجد له مكانا للاختباء. حاول النّزول على نحو غير مُلفت، وشعر أنّه لم يعد يحسن تحريك أطرافه بشكلٍ ملائمٍ، لكأنّما ظلَّ معلّقا بالمقطورة لأعوام. اضطر إلى إلقاء نفسه بين الحشائش الممتدّة على حاشية الطّريق وتدحرج ليرتطم جسده في النّهاية بجذع إحدى أشجار النّخيل.

وقف الدّركيُّ عند مؤخّرة الشّاحنة يتحقّق من لوحِ التّرقيم. كان صوت الأزيز يطغى على المكان، وبدا أنّ الرّجل لم ينتبه لأمر الصبيّ وهو يُغالبُ ألم الارتطامِ وحرقة الخدوش جرّاءَ تدحرجه. ما إن عاد الدّركيُّ أدراجه حتّى تسلّل فاراجي تحت جَنحِ الظّلام، مبتعدا عن نُقطة التّفتيش. كان لا يزال يكابدُ آلامَ أطرافه النّاجمة عن طول تشبّثه بالمقطورة، بيدَ أنَّ خشية وقوعه في يد الدّرك وتخمينه بأنّهم سيعيدونه إلى البيت حتماً، دفعه إلى بذل جهدٍ خارقٍ. كان يعاود الوقوف كلما خانته قدماه ووقع أرضاً، وبدت الحقيبة على ظهره أكثر ثقلاً مما كانت عليه. واصل فراره دون أن يعرف أي اتجاه يسلك، عدا أن عليه النّأي عن أضواء نقطة التّفتيش.

ثابرَ المشي بكدٍّ زهاء نصف ساعة من الزّمن، حتّى انتهى إلى فضاء رمليٍ رحبٍ تتخلّله بعض الصّخور. كان في وسعه رؤية أضواء قريةٍ بعيدةٍ على يساره. خشي أنّها ليست سوى بلدته فآثر المضيّ قُدما نحو ما بدا في سواد اللّيل تلالاً صخريّةً هائلةً.

بلغ الإعياء منه مبلغهُ وتيبّس العطش بحنجرته، حتّى تعذّر عليه جرّ قدميه، فاقتعد الأرض منهوكاً وصار يُقلّب بصرهُ في هذا القفر الذي انتهى إليه أمره. كانت تلك أوّل لحظة يساوره فيها الشَّكُ بحصافة إقدامه على مغادرة البيت. لم يعد واثقا من قدرته على خوض غمار رحلة قد تكون منهكةً وشاقَّة. راح يفكّر فيما إن كانت حياته بائسة حقًّا إلى الحدّ الذي يدفعه للموت عطشاً في قفرٍ مُجدب. تمدَّد على الأرض مُرهقاً وأجال بخاطره أهمّ ما ارتسم بذهنه من مسرّات في حياته، فلم يجد غير لحظات صمته الطّويلة بصحبة صديقه «رمضان» ومغامراتهما الدؤوبة بين حشائش الحقولِ لاصطياد العصافير وإطلاق سراحها. لا شيء سوى هذا قد يدفعه إلى العودة.

حاولَ الجلوس وقد اختلط عليه الأمر، فلمحَ إلى يمينه على مسافة غير بعيدة، ما يشبه أبنيةً طينيّة تغرق في الظّلام الدّامس. زحف صوبها بمشقَّة وحاول أن يصيحَ مستنجداً لكنّ صوته خانه. بالكاد ندّت عنه صرخةٌ مبحوحةٌ. شعر بالضّياع للحظات قبل أن يلاحظ وجود يافطة حديديّة عُلّقت على أقرب الجدران إليه. حمل حجراً وتوجّه إليها مستجمعا ما تبقى لديه من جُهد ضئيل. وقف يضرب اليافطة أكثر من مرّة، علّ صوتَ القرعِ يصل أسماع أحدهم فيدركه ببعض الماء. بيدَ أنّ قواه خارت فجأةً وسقط على الأرضِ فيما يشبه الإغماء. كان يدرك أنّه لا يزال يحتفظ ببعض وعيه، لأنّ سيلَ العرق المنهمر من جسده السّاخن كان يختلط بحبّات الرمل، فيثير ذلك حرقةً لاذعةً حيث أصيب بالخدوش في ساقيه. ظلَّ على هذه الحال للحظات، قبل أن يُغمضَ عينيه أخيرا ويشعر أنّه يطفو في الهواء بـيسرٍ دون أن يُحرك ساكناً.

العَجُوزُ والأرِيكَة

شعرَ فاراجي بهبَةِ هواء أخمَ تزكمُ أنفه وقد شرع يثوبُ إليه وعيه. حاول رفع رأسه قليلا عمّا بدا له فراشا بالغَ الخشونة، فتنبه لكونه يقبعُ وسط ما يشبه فجوةً صخريّةً ضيقةً بعض الشيء، تطلُّ على السّماء المعتمة، بينما يومض من فتحة في أحد الجوانب ضوءٌ باهتٌ. تسلّق بحذرٍ نحو أعلى الفجوة. كانت الخدوش على ساقيه تتنمّلُ وكأنَّ جسمه يتعرّضُ للرّشق بإبرٍ دقيقة. أشرفَ برأسه على الفوّهة، فاكتشف أنَّه على قمّة تلٍّ صخريّ. تذّكر أنّهُ رأى أثناء سيره مجموعة من التّلال المتراصّة. كان اللّيل لا يزال يسبل سواده، غير أنَّ القمر الشَّاحب أطلَّ واحتل بنوره الضّارب إلى الصّفرة حيزًا مُحتشما من السّماء. أمعن فاراجي النّظر فترة، فأمكنه رؤية الأبنية الطّينية التي أغمي عليه قربَها. كانت على بعد مسافة معتبرة. ارتعب وقد خطر بباله أنَّ شيئا ما حمله إلى هنا. تراجع داخل الفجوة وطفق يزحف بحذرٍ نحو الفتحة التي تراءى له منها وميض الضَّوء. اقتضى الأمر منه قفزةً موجعةً كي ينفذَ عبر الفتحة إلى ما يشبه مغارة رحبة.

وقف متوجّسا للحظات، يقلّبُ بصره فيما حوله. لم يكن ثمّة أحد، لكنّ المكان طغى عليه صوتٌ بعيدُ المصدرِ يحاكي أزيزَ محركٍ ما. كانت هناك كومة خردة معدنية، وقد حفلت الأرضيّة إلى جانبها بزيوتٍ وآلياتٍ دقيقةٍ ذات أشكالٍ مختلفةٍ، علاوة عن ثلّة براغي متفاوتةِ الأحجام تناثرت هنا وهناك. رنا بناظريه نحو إحدى الزوايا أين تومض أضواءٌ خافتة تصدر عن عدد لا يسهل حصره من المصابيح الدّقيقة الحجم.

لم يكن وجوده في مغارة غامضة وسط تلالٍ معزولةٍ هو ما أثار روعه فحسب، بل إنّ الهواء العابق بروائح نفّاذة أضفى على المكان وحشةً بعثت في نفسه إحساسا بوجوده في ورطةٍ لا يدرك حجم خطورتها. عاد ببصره إلى الفتحة المرتفعة

وتبيّن له أنَّ الوصول إليها من الأسفل لن يكون هيّنا، كما لفت انتباهه وجود سحليتين في وضع مريبٍ على مقربة منها.

فكَّر أن يطوف بأرجاء المغارة بحثا عن مخرج، لكنّه ما إن بلغ أحد الأركان حتّى لمح مدخلا ضيّقا يتكشّف عن مسلك حالك. لم يكن متأكّدا مما يجدر به فعله. خمّن فيما إن كان الأوفق له أن يعود أدراجه ويحاول الوصول إلى الفجوة للخروج عبرها، أم أنّ عليه المجازفة باتّباع المسلك. في غمرة حيرته تراجع خطوةً إلى الوراء، فرأى ما يشبه خزنةً جداريّةً محتشدةً بالأسلاك، تطلق بعضها شرارات صغيرة بين الفينة والأخرى. دفعه الفضول للاقتراب منها وطفق يتأمّلها باستغراق، حتّى انتشله صوت زاعق.

- لا تفكّر بلمسها!

نطّ في مكانه فزعاً، قبل أن يفقد اتّزانه ويقعَ على الأرض، ثمّ التفَّ حول نفسه باحثاً عن مصدر الصّوت. كان هناك رجلٌ عجوزٌ ناضبَ القوامِ، يقف عند مدخل المسلك وقد انبعث الضوء من قنديل متوهج يحمله بيده. أوحت لحيته المسبلة وهندامه المتمعّج للصبي بأنّه آتٍ من عالم آخر.

جفّ حلق فاراجي وفكّر أنَّ الرّجل مخبولٌ وأنّه قد حوصر في هذا المكان الضيّق. لكنّ العجوز بدا غير آبه لارتياعه وتوجّه صوب الخزنة ليعدل مواضع بعض الأسلاك، قبل أن يقفل راجعا من حيث أتى.

- ما من داع لكلّ هذا الفزع ما دمت تتسكّعُ ليلا في مناطق مهجورة!

قال ذلك قبل أن يغرقُ في الظّلام، لكنّ صوته كان لا يزال يصل جليّا حين أردف،

- لا أعرف كيف وصلت إلى هنا ولا أملك متّسعا من الوقت لأعرف. عليّ العمل حتّى الصّباح، وسآخذ فترة راحةِ مع بزوغ الشَّمس. قد يتسنّى لي حينها أن

أساعدك على العودة إلى البيت.

استولت على الصّبيَ فكرة أنّ هذا الرّجل الغريب سيرغمه على العودة قسرا إلى حيث لا يرغب بالرّجوع أبداً. تغيّرت سحنته وأحسّ بضيقٍ غامرٍ لم يتمالك نفسه إثره فهرول ليقف عند المدخل صارخاً،

- لا أريد العودة إلى البيت!

لم يسمع ردًا، فأنشأ يُردّدُ عبارته بشكل هستيري دون كللٍ، حتّى أنّه لم يتفطّن لذراع العجوزِ تمتدّ إلى عنقه عبر الظّلام وتمسك خناقه بإحكام. انقطع صوته وتعذّر عليه التّنفس بعد برهة. أخذَ يخفق برجليه في الهواء جاحظَ العينينِ وقد أوشك على لفظِ أنفاسه لولا أن قذفَ به الرّجل بعيداً. حاول عبّ الهواء إلى رئتيه وقد استرسلت دموعه تنهمر، قبل أن ينخرط فيما يشبه العويل. كان جسده يرتعش وصوته يتهدّجَ باكياً،

- لا أريد العودة إلى البيت... حتّى أمي لا أرغب برؤيتها... كادت تقتلني... أنت مثلها!

كان العجوز يقف قبالته وقد لمحَ الكدمة المتورّمة على جبهته وبعض الخدوش على ساقيه. وقع في روعه أنّه تصرّف بفظاظةٍ زائدةٍ عن اللّزومِ، فجثا على ركبتيه بمحاذاةِ الصّبيّ وأراد أن يطيّب خاطره.

- لا أتمالك أعصابي حين أسمع صراخاً... لم يكن عليك فعل ذلك!

ربت على رأس فاراجي زمنا حتى انتابته هدأة، ثمّ أشار عليه بأنّ الأوفق له أن يعود إلى البيت مهما كان سبب خروجه منه، لكنّ الصّبيّ كرّر رفضهُ بصوتٍ مخنوقٍ.

- لا أريد العودة إلى البيت!

أحجم الرَجل المسنّ عن الكلام وطفق يسرح بخياله مدّةً قبل أن يقول ساهماً،

- - لا تحدث الأشياء لغيرِ علّة!

مرَت لحظاتُ صمتِ ثقيلٍ قبل أن يعاود التقاط خيط الحديث،

- قد تصلحَ مُساعداً... قم معي!

قال ذلك ووقف مُمسكاً بيد فاراجي. دلفا عبر المدخل ليسيرا على نور القنديل، ملتفَّيْنِ يمنةً أو يسرةً كل خطوتين أو ثلاث، حتّى وصلا أخيرا إلى مدخلِ مغارةِ أقلّ اتّساعاً من الأولى لكنّها تبدو أكثر نوراً. أشار الرَجل على الصبيَ باتّخاذ مقعده على عجلات مطّاطية قديمة نُضِّدت على شكل كرسي، ثم انشغل بالبحث في كومة من الأوراق عن شيء ما. كان صوت الأزيز يبدو أقرب من هذا المكان.

شاهد فاراجي حقيبته ملقاةً قُربَ حزمةِ أسلاكِ تنبثق من أريكةً وقد ربط إلى أعلاها ما يُشبه خوذةً غريبةَ الشَكل. لاحظ أنَّ عددا من الرقائق الدَقيقة تكسو الجزء الخارجي من الخوذة، كما أنَّ الأريكة وُصلت بأسلاكِ إلى جهازٍ ضخمٍ زُوِّدَ بشاشةِ علاها بعض الغبار وهي تبث رسومات هندسيَة وبيانات رقمية تتغيّر كل لحظة. بعث وجود هذه المعدَات الذَهول في نفسه وخمّن أنّ العجوز ذو الهندام المتّسخ لا بد وأن يكون عالماً مجنوناً.

كان العجوز يطفو في حماسه حين افترش الأرض، حاملا بين يديه سجلّا ضخماً وقد افترت شفتاه عن ابتسامة مرتعشة. خاطب الصبيَ بانفعال قائلا،

- هل تودّ أن تُسهم في أعظم ما ابتكرته البشرية منذ عهد الكتابة؟!

لم يع فاراجي إلامَ يرمي الرَجل بسؤاله، ولكنَّ صدره انقبض من كلمة الكتابة فأومأ برأسه نافياً. بدا أن ذلك أدهش العجوز فجعله يسأل باستغراب،

- ألا تريد البقاء معي لتعمل مساعدا؟!

بشكل ما فكّر فاراجي أنّ الرّجل يعرض عليه خيارين لا ثالث لهما، إما أن يبقى ويعمل معه، وإما أن يرغمه على العودة إلى البيت. خمّن أنَّ في وسعه فعل أي شيء عدا أن ينكص على عقبيه رجوعا إلى حياته الكئيبة، ولم يجد بُدًّا من القول مستدركا،

- نعم أريد!

امحت تعابير الذهول من ملامح العجوز و قد بدا له جواب الصبيّ مشجّعا.

- هذا أفضل!

قال ذلك، ثمّ أردف مشيرا إلى الأريكة،

- هل تعرف ما هذا؟

لم يَحرِ الصّبيّ جواباً، كما أنَّ الرّجل لم يُتِح له مُتّسعاً من الوقت.

- لا يمكنك أن تعرف!... ولا يمكن لأيّ كان أن يعرف، لأنّه شيء لم يسبق لأحدِ أن فكّر فيه!

قال ذلك بزهوٍ بالغ، ثمّ أنشأ يسرد كيف طرأت على ذهنه فكرة ما أسماه «إنجازه العظيم» وكيف راح يشغل به أيّامه الرّتيبة في أحد المعتقلات بمنطقة قريبة تدعى «رَقّان»، قبل أن ينجح في الفرار ويشرع في تجسيد حُلمه. كان فاراجي ينصت دون فهم، لكنّه لم يتوانَ عن طرح سؤاله،

- كنتَ في السّجن؟!

- لا! ليس سجنا... إنه معتقل!

لم يبد أنّ الصبيّ استوعب الفرق بينهما، ومع ذلك فقد واصل العجوز كلامه.

- كنت أزاول عملي بالجامعة، لا أعتقد أنّه توجد جامعة هنا بالصحراء!... كيف لي أن أصفها لك؟... إنها... إنها مدرسة كبيرة!... لا بد أنّك تعرف المدرسة أيّها الشّاب الصّغير؟... ما اسمك؟

- فاراجي.

- فا.. راجي... ماذا يفترض أن يعني هذا؟... لا يهمّ... ذات يوم كنت ألقي محاضرة عن المعلوماتية المكمّمة... أعرف أنّك لا تعرف هذا! الكثيرون لا يعرفونه أيضا، إنه مجال بحث حديث النّشأة... المهمّ!... أنّ شخصان دخلا واقتاداني إلى الخارج بحجّة أنّه لديّ لحية!... هكذا انتقلت من الأرض إلى السّماء ومن السّماء إلى الأرض... وانتهى بي المطاف إلى مزرعة اللّحى برقّان... ليس سجنا إنّه... معتقل!

استشفّ الرّجل من ضباب الحيرة المرتسم على ملامح وجه الصّبي أنّه لا يستوعب شيئا، فلاذ بالصّمت هنيهة، قبل أن يستطرد حديثه مشيرا إلى الأريكة تارة وإلى بعض الكتابات على أوراق السّجلّ تارة أخرى.

- دعك من ذلك!.. هل ترى كم خطّطتُ للأمر؟... إنّه إنجاز سيغير كلّ شيء! قد أنجح في جعل الدّماغ البشري قادراً على احتواء أيّ كمّ من المعلومات المعدّة مُسبقا... سيحررُ ذلك الإنسانَ من الحاجة إلى التّعلّم!

التمعَ شيء ما بذهن فاراجي للحظة قبل أن يأفلَ وهو يسمع كلمات العجوز تتحوّل من حيويّة تفيض بنبرة حالمة إلى خُفوتٍ يكاد يخبو عند حلقه حين قال،

- لكنّ الأمر لا ينجح حتّى الآن!

دَاخَلَ الصبيَ إحساسٌ غريبٌ. لم يفهم جلّ ما طرق سمعه، لكنّه أدرك أنّ الرّجل رغم تقدّم سنه يبدو مكرسا حياته بشكل حازم للعثور على شيء يعتبره أهمّ من أيّ شيء آخر في العالم. راح يحدّث نفسه أنّ اللّحظة التي تشبط فيها

الجدار مبتعدا عن نافذته كانت أهمّ ما حدث في حياته حتّى الآن. لم يستصغ كيف سمح لنفسه حين انتابه الإعياء أن يشكّ بصحّة القرار الذي اتخذه. كما لم يستوعب حقيقة أنّه رضي بالعمل مع هذا العجوز تحت طائلة التّهديد بإرغامه على العودة إلى البيت. حتى لو حدث هذا، ففي وسعه أن يكرّر المحاولة مرّة ثانية، وثالثة ورابعة إلى أن ينجح في الرحيل بعيدا تاركا خلف ظهره آلامه البائسة. غمره مجدّدا ذلك الشّعور الذي انتابه حين خطا خطواته الأولى بعيدا عن الحيّ.

- أريد السّفر بعيدا!

قال ذلك بنبرة حاسمة وعلّق بصره في إصرار بوجه الرّجل الذي تيبست ملامحه وقد داهمته حيرةٌ مطبقةٌ وطفق يستغرق في النّظر يمنة ويسرة بارتباك جلي. كان يأمل ألا يستثير غضبه حين أردف مستعطفا،

- أعلم أنّك رجل عجوز... لكن في وسعك أن تساعدني!

بقي العجوز مقرفصا في مكانه دون حراك، وبدا أنّه يشرد بالتّفكير في أمرٍ جلل. فجأة هبّ واقفا وتحرك نحو آلته ملقيا عليها نظرة فاحصة. كانت يده ترتعش وهو يتمتم بشيء ما. هرع نحو الشّاشة وجعل يحدق إليها، ثم صاح منفعلا وهو يصفق يدا بيد،

- كيف لم أفكّر بهذا!... أنا عجوز!

بدا وكأنّ فورة اهتياجٍ تلبّسته، إذ راح يردّد «أنا عجوز!» وهو يروح ويغدو كالدّوامة في عنفوان جامحٍ أثار روع الصبيّ وجعله يعتقد أنّ الرّجل فقد عقله تماما. استمرّ على هذا الحال زمنا دون أن يناهز اهتياجه أيّ خبوّ. بدا أنه اكتسب طاقة عجيبة، لكنّه كفّ عن الحركة فجأة وأنشأ يحدق إلى الصبيّ، قبل أن يركض باتجاه حاسوبه الضخم. سحب لوح المفاتيح ثمّ جعل ينقر أزراره في عصبيّة معلّقا بصره بالشّاشة وهو يقول هامسا بين الفينة والأخرى «كان حرياً بي أن أفكّر في الأمر منذ أوّل وهلة.»

لم يجرؤ فاراجي على الاقتراب منه، حتّى بعد أن خمدَ اهتياجه وأسلم نفسه بالكامل لآلته. اكتفى بالتّحديقِ إليه فحسب وهو لا يزال رابضاً على كرسيّ المطّاط. كان في وسعه أن يلحظ على الشّاشة رسومات بيانية غريبة ذات ألوانٍ مختلفة. لم يحاول بذل أيّ جهدٍ كي يعي ما يراه، غير أنّه لمح صورة بدت له مألوفة إلى حدٍّ ما. كانت تحاكي رسما ذو خطوطٍ زرقاءَ لدماغٍ بشريّ وقد جعل العجوز يغير وضعه على الشّاشة بطريقة ما، فتبرز بداخله تموّجات حمراء اللّون تتخلّلها بعض العُقَد الصّفراء التي تضيء لبرهة ثم يتضاءل حجمها رويدا رويدا وتأفل.

التقط الرّجل حبل الكلام وقد شعر أنّ الصّبيّ يتابع حركاته، فنظر إليه بوجه تعلوه ملامح تفاؤل غير محدود الأفق،

- إذا صدق حدسي، فقد أعنتني على اكتشاف مصدر الخلل. ستكون هذه خطوة عملاقة! لا بل أكثر من عملاقة!

ارتسمت على مُحيا فاراجي ملامح دهشة شاردة وهو يحاول إقناع نفسه أنّ العجوز ليس مصابا بلوثةٍ عقليّة.

- اقترب!... اقترب أيّها العبقريّ الصّغير، عليك أن تشاهد هذا... ستكون لحظة حاسمة في تاريخ البشرية! سأطلق محاكاة برمجية وأريدك أن تكون حاضرا معي بكلِّ كيانك!

قال الرّجل ذلك وقد استعاد بعضاً من حماسته ثمّ نقر بضع مرّات على أحد الأزرار. اقترب الصبيّ دون أن يدرك ما قد يسترعي انتباهه، لكنّه استجاب بالتطلّع إلى الشّاشة. لم يلحظ شيئا في البداية، لكنه تفطّن بعد برهة إلى أنّ تغيرا ما يطرأ على الرّسم التّخطيطي للدّماغ. أخذت التّموجات الحمراء في التّحرك حول نفسها ببطء، بينما تنامت العُقد الصّفراء عليها شيئا فشيئا حتى استقرّت على أحجام متساوية دون أن تتضاءل، ثم بدأت تصدر وميضا نابضا. وثب العجوز من مكانه وصاح،

- إنها تتراكب إيجابا! إنها تتراكب إيجابا!

تحوّلت العبارة على لسانه إلى ما يشبه لحنا ملحميا، قبل أن ينخرط في موجة رقص عارمة سرعان ما ضمّ إليها جليسه. لم يدرِ الصّبيّ علام كانا يرقصان، بيد أنّه شعر بضلوعه في جعل الرّجل العجوز يعيشُ لحظة سعادة خالصة. لم يعرف قبل اليوم أنّ في وسعه فعل شيء مشابه، كما أن أحدا ما لم يسبق أن نعته «بالعبقريّ». كان فيض الحبور الذي غمر العجوز يتغلغل في أعماقه بدوره ولم يجد من العسير عليه أن يُسلم نفسه إلى تلك الفورة العاصفة من الرّقص الجنونيّ الغريب.

مَوجَاتُ الشَّحْن

استغرقت موجة الرّقصِ زمنا قبل أن تشرع حركةُ العجوز في التّراخي. بدا جلياً أنَّ جسمه الهزيل لا يسعفه على بذل المزيد من الجهد، فاستند بيديه إلى ركبتيه وأخذ يعبّ الهواء عباً، بينما يتفصّدُ جبينه عرقا. رفع بصره إلى الصّبي، الذي استفهم بنبرةٍ بريئة وقد نال منه الإجهاد أيضاً،

- لِمَ نرقص؟!

تيبّست ملامح وجه الرّجل وانتبه أخيرا إلى كون الصّبي لا يستوعب جسامة هذه اللحظة الخطيرة في سبيل استكمال ابتكاره العظيم. جثا يتأمّل الوجه الباذنجاني الصّغير. ارتبك فاراجي وقد خمّن أنّه طرح سؤالا ما كان ينبغي له أن يسأله، لكنّ العجوز بدّد ارتيابه قائلا،

- من المهمّ أن تفهم! سيكون من المؤسف جدّا أن تسهم في ثورة البشريّة دون أن تعرف ذلك!

شرع بعدها يوضّح له مبدأ عمل ابتكاره، الذي يقوم بواسطة موجات كهرومغناطيسية معدّلة بتوليد تفاعل مع موجات المادّة في دماغ الإنسان ومن ثمّة يتمّ شحن خلايا الذاكرة بطريقة تُرسخَ المعلومات المعدّة حاسوبيا.

توقف العجوز للحظة مدركاً أنّ أغلب كلماته ضلّت طريقها إلى ذهن الصّبي، بسبب استغراقه في سرد التّفاصيل التقنية، لذا فكّر أنّ من الأنجع التّحدث عن أهمّ نتائج إنجازه المبهر.

- ستتيح هذه الآلة للإنسان أن يتعلّم في دقائق معدودة ما كان يقتضي تعلُّمه سنواتٍ طويلةٍ من الكدّ. أليس هذا مهمّا؟!

انتابت فاراجي لحظة شكّ في أنّ ما يحدث معه حتّى الآن ليس إلا مجرّد حلم. ربّما أغفى بعد أن تعرّض لتقريع أمه العالية وانخرط منذ ذلك الحين في نسج التّلال والأماكن في خياله. انتشله صوت العجوز من شروده.

- كم مرّة حدث معك ذلك؟

لم يعرف الصبيّ ما عساه يقول وقد فوّت شطرا من كلام الرّجل، لكنّه سأل بعد تلكؤ وقد التمعت فكرة بذهنه،

- هل هذه الآلة موجهة لأطفال المدارس الأغبياء؟

قال ذلك وقد خمّن أنّ اختراعا كهذا سيتيح له بصيص أمل ليتصالح مع حياته السّابقة من جديد. على الأقل، لن تغدو المدرسة مصدرا لآلامه حين يكفّ الآخرون عن اتّخاذه مسخرة ينعتونها بصنوف البلادة.

لا!

أجاب العجوز باقتضاب، قبل أن يردف موضحاً أن لا علاقة للأمر بالأشخاص المتّصفين بالغباء وأنّ اختراعه موجّه للجميع، ثمّ استطرد قائلا أنّ المدارس قد تفقد وظيفتها الحاليّة على الأرجح وربما ستظهر في المستقبل البعيد مدارسٌ من طراز مختلف لا يملك هو ذاته تصوّرا كاملا عنها. غرق بعد أن قال كلّ ذلك في لحظة تفكير عميق، أتاحت للصّبيّ أن يتأمّل الرّسم التخطيطيّ على الشّاشة، قبل أن يقطع حبل الصّمت سائلاً،

- هذا دماغك؟

لم يستطع العجوز منع نفسه من الضّحك، لكنّه أجاب قائلا بعد لأي،

- إنّه... إنّه مجرد محاكاة!

- محاكاة؟

- حسنا! لنقل أنها طريقة لإجراء تجربة ما في... في عالم افتراضي، دون الحاجة إلى إجراءها في الواقع!

بدا الرّجل مستعدًا للاستفاضة، لكن النّظرة الشاردة على وجه الصّبيّ كانت كافية لتثني عزمه، فلاذ بالصّمت.

- و رقصنا لأن التّجربة نجحت؟

قال فاراجي ذلك وقد انتابته رغبة غريبة في فهم عمل الآلة. لم تنتبه مثل هذه الرّغبة في فهم شيء منذ زمن بعيد. أخبره العجوز عن مخاطرته بإجراء التّجربة على نفسه وكيف حاول تحفيز التّفاعل بين موجات أسماها «موجات الشّحن المعلوماتيّ» مع دماغه دون أن ينجح الأمر، لكنّه تنبه اليوم لكونه صار عجوزاً وهو أمر لا يدرك كيف تغافل عنه.

- يتناقص إفراز بعض الهرمونات لدى المسنّين إلى حدّ قد يعيق تراكب موجات الشّحنِ مع خلايا الدِّماغ، لا أعلم كيف تناسيت هذا الأمر المهمّ! ربما لاعتقادي أنَّ قلبي لا يزال ينبض بالشّباب!

قال ذلك بحسرة، وأردف موضّحا أنّ المحاكاة التي أجراها، تثبت له بشكل شبه قطعيّ أنّ هذا الخلل الذي ارتكبه قد يكون السّبب وراء فشل محاولاته السّابقة، ما يعني أنّ عليه إعادة النّظر في بعض آليات ابتكاره، كي يتواءم مع تقدّمه في السّنّ. سأل الصبيّ باندفاع وقد لاذ العجوز بالصّمت،

- هل يمكن أن أجرب؟

- تجرب ماذا!؟

- أن تشحن دماغي بالمعلومات.

- طبعا لا!

أجاب العجوز مضطربا، وقد اعترته رعشة غريبة. كلّ ما كان يفكّر فيه هو إدخال تغييرات تتيح له إعادة التّجربة على نفسه، لكنّ الصبيّ يبدو متحمسا لأمر قد يكون سبيلا لإنجاح اختراعه دون الحاجة إلى إجراء أيّ تعديلات. عبثا حاول ثني الصّبيّ عن رغبته الملحّة في خوض التّجربة. كان يتصارع مع نفسه أكثر مما يفعل مع فاراجي، جاهدا في تصوّرِ المخاطرة الجسيمة. تذرّع بالقول أنّه لا يحقّ له بأيّ حالٍ من الأحوال أن يجري تجربةً على صبيّ عثر عليه تائهاً في الظّلام.

- قد يتسبّبُ التّعرّضُ للموجات المعلوماتيّةِ المكثّفةِ في تخريب خلايا دماغك! ألا تفهم!؟

كان يقول ذلك مبرّرا رفضه القاطع، لكنّ صوتا آخر بداخله كان يحثّه بشكل لجوج على المضيّ قُدما لأنها فرصته كي يضع مجهوده المضني لسنوات على المحكّ. لعلّه قَدَرُ الصّبيّ أن يغامر بإجراء التّجربة ولعلّ المخاطر التي يفكّر في حدوثها ليست أكثر من تخميناتٍ بعيدةِ الاحتمال. لقد سبق له أن جرّبَ الأمر على نفسه ولم يحدث أيّ مما يخشاه. ظلّ مرتبكا تتجاذبه أفكار المتضاربة، حتّى رضخ في النهاية لمطلب الصبيّ تحت وطأة إلحاحه المستمرّ. أذعن دون أن يكفّ عن التّذمر وهو يهيأ الخوذة والأريكة.

- لا أصدّق أنني أقوم بخطأ فادح كهذا!... هذا يعني المخاطرة بحياتك!... لا أعلم إن كنت تفهم!

لكن الصبيّ بدّد آخر حبال تردّده قائلا،

- ألم تقل أنّ هذا سيكون أعظم ابتكارات البشريّة؟

لم يعد في يدِ الرّجل وسيلة لإقناعه بالعدول عن طلبه. فاراجي ذاته لا يعرف كيف استطاع أن يجد في نفسه كلّ هذه الطّاقة كي يصرّ على الأمر. شعر أنّ ما

تبقى من حياته كلّها يتوقف على هذه اللّحظة وأنّه إن لم يفعل ذلك الآن فما من داع كي يستمرّ بالرّحيل بعيدا.

استلقى على الأريكة بمعونة العجوز الذي وضع له الخوذة على رأسه وعدّل بعض أزرارها الصّغيرة قبل أن يتأكّدَ من سلامة ارتباط الأسلاك بحاسوبه، ثم اتخذ مقعده خلف الشاشة وشرع ينقر لوح المفاتيح بأصابعه.

كان الصّبيّ يتابع بشغف. فكّر فيما سيطرأ على حياته من تغيّر إن سار الأمر كما وصفه العجوز. لم يكن يتصوّر وهو يقف على مشارف البلدة، أنّه سيصادف شيئا يجعله يتنازل بالعودة إليها، غير أنّه سيغدو شخصا مختلفا. سيفغر الكثيرون أفواههم حين يكتشفون أنّه لم يعد ذلك الأبله المثير للسّخريّة. قطع الرّجل حبلَ أحلام يقظته، بعد أن راح يربط معصميه بقطعتي قماش إلى ذراعي الأريكة هو يخبره مطمئنا،

- إنه مجرّدُ إجراء احترازيّ! قد تشعر ببعض الصداع وتّشنجٍ في عضلاتك. يفترض أن يزولا في ظرفِ وجيزٍ... هذا إن سار الأمر دون حدوث كارثة!

هزّ فاراجي رأسه وقد رسم ابتسامة حماسٍ على محيّاه، مع أنّ توتّرا طفيفا اعتراه لحظة تقييد معصميه. أشار عليه العجوز بضرورة اختيار مجالٍ محدّدٍ من مجالات المعرفة كي يتسنّى له إعداد حزمة الموجات المعلوماتية وفقه. جال بفكره للحظات في المقرّرات المدرسية التي مرّت به، قبل أن يعرب عن رغبته بمعرفة كل ما يسعه عن الرّياضيات، فهي أبغض الموادّ التعليميّة إليه وإذا نجح الأمر معها فسينجح مع أيّ شيء آخر دون ريب. اعترض الرّجل قائلا أنّ المجال المعرفي للرّياضيات متشعّبٌ جدّا وأنّه لن يخاطر بشحن كمّ هائلٍ من المعرفة ضمن حزمة واحدة في دماغ الصّبيّ. لكنّه قرّر بعد التّفكير لبرهة أنّ في وسعه إعداد حزمة تحوي مجال الرّياضيات الأساسية الذي يشتمل على كلّ ما قد يحتاجه صبيّ في مثل سنّه وأزيد من ذلك.

- حسنا! الرّياضيات اللّعينة إذن!

صاح فاراجي نافذَ الصّبر وهو يعدل جسمه قبل أن يُغمض عينيه مُبدياً استعداده الكامل. إثر ذلك، شغَّل العجوز آلته فتوهجت بعض الأضواء الصّغيرة على حوافِّ الخوذة. كانت الشّاشة تظهر مدى تقدّم عملية الإعداد. ما هي إلاّ دقائق حتّى راح يصدر صوت رنينٍ خافتٍ من الخوذة، قبل أن تتصاعد حدّته شيئاً فشيئاً. أصبح جسد الصّبي يهتزّ اهتزازا خفيفا على الأريكة ثم ازداد اضطراب حركته اطّرادا حتى أصبح يئنّ وينكت بأصابعه طرفَ الأريكة وقد غارت عيناه في رأسه فلم يعد يظهر إلاّ بياضهما.

فِيبُونَاتشِي

استغرقت العمليّة أقلَّ من دقيقتين، لكنّ فاراجي لم يستفق إلّا بعد زهاء نصف ساعة من الزّمن. دعك حينها عينيه في تثاقل وقد شعر بالفتور يَعمّ جسده. كان العجوز يقف إلى جانبه عاقداً يديه خلف ظهره في قلق باد. أومأ إليه بالبقاء مُضطَجعاً على فراش بالٍ بسط على الأرض مباشرة.

- خشيت أن تظلَّ غائبا عن الوعي أيّاماً!

لم يكن في وسعه أن يطلق العنان لفرحته. ظلَّ يعاين ردة فعل الصّبيَ، متخوّفا من احتمال تخريب الموجات لدماغه. انتظر منه أن يقول شيئا، لكنه لم يتلفّظ إلّا بعد لأي بكلمة واحدة،

- ماء!

كان ذلك كافيا كي يبدّد مخاوف الرجلَ ويعيد نضارة الحياة إلى وجهه، فأسرع ليحضر قارورةً مبطَّنةً بالقماش وطفق يعين الصّبيَ على ارتشاف الماء منها. أدرك أنَّ الأمر لم يكن كارثيًا مثلما تهيّب، إذ لا يزال الصّبي يتصرّف بشكل عاديّ، غير أنّه بحاجة إلى الرّاحة. ساعده على الاضطجاع مجدّداً، ثم تركه يأخذ إغفاءة ثانية.

كانت الفرحة تطفح من عيني العجوز وهو يطالع التّقرير البرمجي على الشّاشة. انتفض واثباً من مكانه وبحث عن سجلّه الذي يقيّد فيه كل ملاحظاته. وجده بمحاذاة كرسيّ المطّاط، فاستخرج من جيبه قلما وطفق يكتب على صفحاته وقد انتابت الرّعشة أصابعه. لم يقطع عليه حبل انغماسه في الكتابة سوى صوت فاراجي يسأل،

- ماذا حدث؟

حاول الرّجل أن يدفعه للخلود إلى الرّاحة فترة أطول، لكنّ الصبيّ أصرّ على الجلوس مؤكّدا أنّ الصّداع اختفى تماما وأنّ كلّ ما يشعر به الآن هو طنينٌ خافتٌ يتردد في آذانه. كانت فرصة لم يستطع العجوز مقاومتها ليكتشف مدى نجاح تجربته، فسأله عن أعداد «مُتتَالية فيبونَاتشي». نظر الصّبيّ إليه في صمت لبرهة قبل أن يسرد سلسلة من الإعداد،

- 1, 1, 2, 3, 5, 8, 13, 21, 34, 55...

قاطعه الرّجل منبهرا بسؤال آخر،

- ماذا عن نهاية حاصل قسمة كل عدد من المتتالية على العدد الذي يسبقه؟

أطرق فاراجي لوهلة منشغلا بالحساب الذّهني، قبل أن يجيب وقد استفزّ التّرقب أعصاب العجوز.

- إنه يقترب من النّسبة الذّهبية!

- نعم! إنه يقترب من «فاي»!

غمرتهما الدّهشة. كان الصبيّ متأكّدا أنّه لم يسمع قبل اليوم بما أورده من معلومات، لكنّه وجد من اليسير عليه استحضارها من ذهنه بشكل ما، أمّا العجوز الذي وقف مشدوها بجسده الفارع مثل فزّاعة من القصب، فقد اغرورقت عيناه بالدّموع وطفق يردّدُ منتشيا بانفعال بالغ،

- إنها فاي! إنها فاي!

لم يكد يصدّق أنّ حلمه الذي ظلّ يكدح لأجله سنوات مضنية، يتحقّق الآن أمام ناظريه. جعل يجسّ بأصابع يده وجه فاراجي قائلا،

- إنها حقيقة! أليس كذلك؟!

بدا أنّه لم يستطع تصديق الأمر، بل إنّه لم يتوان عن التّحقق من قدرات الصّبي بين كلّ لحظة وأخرى، إذ أنشأ يسأله عن «مجاميع ريمان»، وعن «تحويلات فوريه» وعن أمور أكثر دقّة في مجال الرّياضيات، لكن أيّا منها لم يعجز فاراجي. كان جليا أنّ معرفته تفوق سنّه بأشواط كبيرة وأنّ الأمر أشبه بمعجزة.

قرّر العجوز وقد أذهلته النّتيجة، أن يجري مسحا موجيا لنشاط دماغ الصّبي، فطلب منه العودة إلى الأريكة. لم يكن لدى فاراجي أيّ مانع، إذ كان سعيدا لاكتسابه هذه الموهبة العجيبة وأخذ يسرح بخياله فيما سيؤول إليه أمره. ستصدم المفاجأة أستاذه في الرّياضيات، وهو الذي اعتاد اتّخاذ تقهقر مستوى أطفال السّود محطّ تندّرٍ في الصّفّ، مفردا في ذلك مكانة خاصّة لفاراجي، إذ يرمقه بنظرة حادّة سائلا بتهكّم،

- هل تعلمون إلى ما نرمز بـ «إيبسلون»؟

فتجيب مجموعة من التّلاميذ الذين دأبوا على سماع هذا السّؤال السّاخر،

- إلى عددٍ صغيرٍ جدّا جدّا..

كان بعضهم يتلفّظ بكلمة «صغير» هذه وهو يتلّوى في مكانه بشكل مغرق في الاستهزاء، قبل أن تتعالى أصواتهم بالضّحك. «سيبتلعون ألسنتهم دهشةً!»، حدّث فاراجي نفسه وهو يفكّر في إلجامهم جميعا.

- التّراكب غير مستقرّ!

قال العجوز ذلك بوجه شاحب يشي بما يعتمل في داخله من قلق. بدا أنّ أمرا ما لا يسير على ما يرام. استغرق في التّأمل للحظات، قبل أن يردف،

- عليّ أن أراقب الوضع لساعات وربّما لأيّام!

- لكنّني أريد العودة إلى البلدة!

ردّ فاراجي وقد أزمع العودة إلى المدرسة ولو ليوم واحد، كي يثبت لأستاذ الرّياضيّات أنه لم يعد في وسعه هو ولا أيّ من تلاميذ الصفّ أن يسخر منه. أثار الرّدّ استغراب العجوز فعقّبَ قائلا،

- ألم تقل أنّكَ لا ترغب في ذلك أبدا؟

- أحتاج لأن أعود من أجل أمر خاصّ.

ران الصّمت عليهما للحظات وقد أدرك الرّجل أنَّ للأمر علاقة بالموهبة الجديدة. قرّر بعد طول نظر أنّه لا يعارض عودة الصبيّ من حيث جاء، بل إنّه مستعدّ ليقلّه على دراجته الهوائية، لكنّ عليه أن يدرك مدى أهميّة الفحوص التي تنتظرهما في الأيام التّالية وعليه أن يلتزم بإجرائها. هزّ فاراجي رأسه بالإيجاب، فطأطأ العجوز رأسه نحوه وقد اكتست قسمات وجهه ملامح صارمة. رفع سبّابته إلى فمه قائلاً أنّ الأهمّ من كلّ ذلك أن لا يتفوّه بأيّ كلمة حول ما حدث وإلاّ فإنّ أمورا بالغة السّوء ستحدث، أوّلها أن يصل لصوص الحلم إليه ليسرقوا آلته ولن يتورعوا بعد ذلك في إيذائه وإيذاء الصّبيّ بشكل مؤلم جدّاً. لم يعرف فاراجي عن أيّ لصوص كان العجوز يتحدّث، لكن سحنته الحازمة أثارت الهلع في أعماقه، فعقد العزم على إبقاء سرّهما طيّ الكتمان.

بعد دقائقَ معدودةٍ انطلقا يسيران في ظلام آخر سويعات اللّيل. كان الرّجل يحفظ تضاريس المنطقة ومواقع قراها عن ظهر قلب، إذ لطالما خرج بدرّاجته قبيل بزوغ الشّمسِ كي يشتمّ الهواء النّقيّ. كانت تلك إحدى المتع القليلة جدا التي احتفظ بها من حياته قبل ما أسماه بـ «المعتقل». لذا لم يكن غريبا أن يتعهّد الدّراجة بالصيانة يوميا عند أوبته من الجولة الصّباحيّة، كما أقدم على تزويدها منذ مدّة بماسح للأثر صنعه من مخلفات بلاستيكيّة، لكنّه اهترأ بعض الشّيء وصار بحاجة إلى التّجديد. لم يتمكّن أبدا من إبداء مدى امتنانه لرفيق دربه بالجامعة،

حين جلب له خفية كلّ المعدّات التي تطلّبتها تجربته وأحضر له فوق ذلك هذه الدّراجة الهوائيّة الجميلة، بل وتجشم دفع مبلغ محترم لأحد زملاءه القدامى بالجنوب كي يتعهد بإحضار الطّعام والوقود في سرّية تامّة ويضعها على مقربة من التّلال مرّةً واحدةً كل شهر. كان الأمر يقتضي كثيرا من الحذر، وقد دأب العجوز على توخي ذلك في تحركاته. منذ استقرّ بهذه التّلال، لم يلحظ أحدا يقترب منها ليلا عدا فاراجي.

راح الرّجل يجهد ساقيه النّحيلتين في تحريك دوّاسات درّاجته وهي تسير بصعوبة على الأرض التّرابية الوعرة. لم يكن المصباح ينير إلاّ مقدار خطوتين أو ثلاث، بيد أنّ الحماس الذي غمره جعل جسده يتدفّق نشاطا. لم يكن بحاجة إلى كثيرٍ من الوصف كي يعرف بلدة الصّبيّ وقد جزم قائلا،

- سنصل إليها قبل بزوغ الفجر، أعرف طريقا مختصرا.

عنّ للصبيّ أن يشغل نفسه في الطّريق باستكشاف موهبته أكثر فأكثر. أنشأ يفكّر في مسائل رياضيّة مرت به ولا تزال بعض تفاصيلها عالقة بذهنه. طالته الدّهشة و قد ألفى أن في وسعه اختلاق مثل تلك المسائل بمجرد التّعرف على بعض معطياتها. كان يفهمها بيسر أثار زهوه. لم يعتقد يوما أن الحسابات الرّياضيّة قد تغدو مصدر متعة له. سرعان ما راح يستنبط أكثر من طريقة لحلّ بعض المسائل، فأحسّ سعادة غريبة تغمره وارتسمت على شفتيه ابتسامة اعتداد بنفسه يعرفها لأول مرة في حياته. تمنّى لو وسعه أن يكون بمثل هذه الفطنة في مختلف ميادين المعرفة. ستكون متعته غير محدودة، وسيكفّ الجميع عن نعته بالبلادة، بل إنّهم سيغبطونه دون ريب. ابتدرَ إلى سؤال العجوز الذي كان هو أيضا يتيه في سديم خواطره،

- متى ستشحن دماغي ببقيّة العلوم؟

كانت مطبّات الطّريق تهزّ كليهما، فاضطرّ إلى تكرار سؤاله أكثر من مرّة حتّى

فهمه العجوز، الذي اكتفى بالإجابة شارد الذهن،

- لا أدري!

قطع ذلك السّبيل أمام خيالات الصّبيَ، لكنّه وجد العزاء فيما لديه.

وصلا إلى البلدة قبل أن يرسل الفجر أوّل خيوطه، وراح الصّبيَ يرشد الرّجل إلى طريق البيت. ركنا الدّراجة في زقاق معتم و واصلا تسلّلهما في الظّلام حتّى بلغا الباحة المقابلة لغرفة فاراجي. اقترح العجوز أن يلتقيا في نفس المكان ليلة الغد وأن تكون كلمة السّر بينهما هي إلقاء حصوتين صوب النّافذة. وافق الصّبيَ وتسلّق الجدار مكابدا آلام خدوشه، وهو يُومئ بيده مودّعا.

يَومٌ مُختَلِف

لَم يكن فاراجي قد نامَ أكثر من ساعتين حين أيقظته العَالية كي يذهب إلى المدرسة. غالب الفُتور الشَّديد الذي اعتراه وقام متثاقلا من سريره، بيدَ أنَّه ما إن تذكَّرَ الموهبةَ التي اكتسبها ليلة البارحة حتى غمرتهُ فورة نشاط أزاحت عن كاهله حاجته إلى البقاء في فراشه مدَّةً أطول. كان في انتظاره يوم ليس كسائر أيّامه السّالفة.

بعد فترةٍ وجيزة، كان يجلس إلى مائدة الإفطار وهو يقضم رغيف خبزٍ ويرتشف كوب الشّاي بعد أن احتسى كوب الحليب عن آخره. كانت العالية تتحاشى النَّظر إليه وبدا أنَّه لا يحفلُ لذلك. اعتاد منذ زمن أن تتجاهله لأيّام كلَّما ارتكب جريرةً في نظرها. لم ينبس أيّ منهما ببنت شفة، ولكنّه أدرك أنَّها لاحظت الخدوش على ساقيه وذراعه، لأنَّ أصابع يدها راحت تقرع المائدة بشكلٍ مضطرب وهي عادةٌ تلجأ إليها كلَّما انتابها التّوتر، لكنَّها لم تقل شيئاً. ظلَّ الصّمتُ المثقل بالكلام جاثماً على سحنتها الذّاوية، أما هو فقد تشاغل بسحب ورقة من محفظته وأخذ ينظر إليها ملياً. لم يكن من العسير عليه إن يرنو ببصره نحوها ليطالع علامات الحيرة مرتسمة على وجهها.

منذ زمن بعيد لم تره يفيض بمثل هذا النَّشاط الصّباحي، بل إنّها دأبت على إيقاظه مراتٍ عدَّة في كَبَدٍ ينتهي غالباً بفقد أعصابها. يبدو لها اليوم مختلفا بعض الشَّيء. أثارت الخدوش على جسده استغرابها، ولمحت الكدمة على جبهته فتذكَّرت أنَّها قذفته ببعض الأواني ولا بد أنَّ إحداها ارتطمت برأسه. خمّنت أنَّها لم تكن تع ما تفعل حين فقدت أعصابها ظهيرة الأمس. إنَّه يُخرجها دوماً عن طورها بحماقته المفرطة. أرسلت تنهيدة وهي تترك المائدة. رأته يتمعّن ورقة فاستنبطت أنَّ الأمر يتعلَّق بفترة الامتحانات، إذ أنَّ الموسم الدِّراسيَ سينقضي بعد

أقلّ من شهر. اعتبرت ذلك تفسيرا مقنعا لحيويته الزّائدة، دون أن تستبعد أثر ما فعلته به. أشعرها ذلك بنوعٍ من الرضا عن نفسها.

لم تكن الورقة بين يدي فاراجي سوى رزنامة زمنيّة راح يبحث فيها عن توقيت حصّة الرّياضيات. كان اطّلاعه عليها أمرَ نادرُ الحدوث، إذ لم يجد في نفسه الحاجة لذلك، فموادُّ الفصل تتشابه بالنسبة له في انعدام الطّعم، كما تتشابه سنوات دراسته المملّة. كانت قد سرت شائعة بين أترابه مفادها أنّه يحتاج إلى تكرار الموسم مرّتين أو ثلاث، حتّى يشعر أساتذته أنّهم ملّوا شبحه الشّاحب، فيقرّرون نقله إلى الصّف الموالي معتبرين ذلك عمليّة إنعاشٍ لشخصٍ ميّت. لم يتوان بعضهم في سؤاله بتهكُّم عن الخوارق التي اجترحها كي ينتقل من المرحلة الابتدائيّة إلى المرحلة المتوسّطة. كان هناك شبه يقين أنَّ هذه السّنة ستكون الأخيرة في مشواره بعد أن أعلنها المدير صراحة أمام الملأ، في امتداد خفيّ للصّراع العرقي الذي صارت تميل كفته إلى المرابطين. لم يكن المهدَّد الوحيد بالطّرد من أبناء السّود، لكنّ وصول الخبر إلى مسامع العالية كان قَميناً بدفعها إلى الجنون. كانت ترى في ابنها آخر شيء يدفعها لتحمّل حياتها المترعة بالعذاب، وإذا لم تكن قد أقدمت بعد على الإلقاء بنفسها التّعيسة في بئرٍ سحيقة، فلأنها كانت تأمل أن ينتشلها يوما من البئر القاتم الذي تحمله بداخلها.

« سيكون يوما مختلفا!»، حدّث فارجي نفسه وهو يلج البوّابة المشرعة لمدرسته، ماخراً بثقة عباب الزّحام الذي تملئوه سيقان أترابه. سيكون عليه ترقّب حصّة الرّياضيّات بصبرٍ نافذ حتّى السّاعة الصّباحية الثّانية. شعر أنّه لا يقوى على كبح انفعاله. ما إن دخل الصّف حتّى همس في أذن صديقه رمضان بأن يُعيره كرّاسة الحساب. مدّ جليسه يده إلى محفظته وقد انشقلت حواجبه في ذهول لهذا الطّلب الغريب. راودت فاراجي فكرة أنّ ما حدث ليلة الأمس لم يكن سوى تهيّؤات وأخيلة، فَراعهُ الأمر للحظة. استلم الكرّاسة وراح يقلّب صفحاتها متلهّفا، ثم انشرح صدره وقد وسعه أن يفهم كل ما كتب فيها بيسر غير معهود. ما حدث لم يكن حلما إذن، وقد غدا عبقريّا في أكثر الموادّ استثارة لنفوره. طالع آخر الدّروس

بتأنٍّ، واكتشف وجود خطأ في أحد تمارينه. فحص كرّاسة زميل آخر ووجدها تتّفق على نفس الخطأ. خمّن أنَّ هذه فرصته.

ما إن دخل أستاذ الرّياضيّات الصّف حتى ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ ساخرةٌ، وقد رأى فارجي يقعد إلى طاولة قريبة من السّبورة. لم يسبق أبدا أن رآه يجلس في الصّفوف المتقدّمة.

- يبدو أنَّ إيبسيلون سيصبح مجتهدا قبيل أيّامٍ من طرده!

كان الصبيّ يزمع إظهار الخطأ مع نهاية الحصّة كدليل على نباهته، لكنَّ نبرة التّهكم في كلام أستاذه أثارت حفيظته ومنحته شجاعة غريبة كي يقف قائلا،

- هنالك خطأ في حلّ تمرين الحصّة الماضية!

استشرت الهمسات المستغربة بين الصّفوف، بينما امتزج الضحك بالذُّهول على ملامح وجه الأستاذ، فوضع محفظته الضّخمة بتثاقل على المكتب، وتوجه نحو الصبي ينظر إليه بعينين تملئوهما سخرية مفرطة.

- أرني الخطأ أيّها النّابغة!

مدّ فاراجي يده بكرّاسة زميله وأشار إلى أحد السّطور. تأمّله الأستاذ لبرهة قبل أن يرفع الكرّاسة إليه ويتّجه بها صوب مكتبه حيث ظلّ واقفاً للحظات، ثم رمق الصّبيّ بنظرة متشكّكة وعلّق ملقيا بالكراسة،

- هناك خطأ حقاً. لا تخبرني أنّك من اكتشفه!

- نعم!

لم يستطع الأستاذ ولا بقيّةُ التّلاميذ كبحَ ضحكاتهم، لمَا بدا لهم في الأمر من غرابة. استمرت موجة الضّحك المستهترِ تلطم وجه الصّبيّ، فقرّر أن يفعل شيئاً

يخرس به الأفواه المشرعة. توجّه إلى السّبورة وحمل قطعة طَباشير وجدها ملقاةً على المصطبة، ثم شرعَ يحلُّ التّمرين مُصحّحا الخطأ، قبل أن يضيف طريقتين أخريَينِ للحلّ. لاذ الجميع بصمت مُشرئبٍ بمن فيهم الأستاذ الذي اكتفى بإشارة إلى فاراجي أن يشرحَ ما كتب.

قدّم الصّبيَ، بطلاقة غير معهودة منه، شرحا مستفيضا وسَرَدَ استعمالات نظريّة متقدّمة «لكثيرات الحُدود» التي يتطرّق التّمرين إلى تطبيقٍ بسيط حولها. لم يدرِ هو ذاته كيف تفلّتت حبالُ لسانه من عقالها بعد هجوعها سنينا، لكأنّ اللّيلة الماضية أذابت جليد الصّمت عن طبعه. كانت التّفاصيل التي يوردها دقيقةً ومعمّقةً، بحيث تفوق ما يمكن لبقيَة التّلاميذ استيعابه، أمّا الأستاذ فقد جلس إلى مكتبه وهو يرمقه بنظراته الذّاهلة غيرَ مصدّق لما يراه. في النّهاية، رمى فاراجي بالطّبشورة على الأرض وخرج من الصّف رأساً وسطَ دهشة الجميع.

شعر أنّه أنجز ما عاد من أجله إلى البلدة. لم يتبق أمامه سوى أن ينتظر انقضاء الفترة الصّباحية كي يعود إلى البيت وينتظر موعده مع الرّحلة من جديد. قادته قدماه إلى مكتبة المدرسة، وفكّر أنّ خروجه من الصّفّ كان بطولياً إلى حدٍّ يدعو للفخر، مع أنّه سيضطرّ للبقاء في المكتبة ريثما يرنُّ جرس الاستراحة تجنباً لمسائلة مراقب المدرسة الذي لا يَني يَلوبُ الباحةَ بحثا عمّن تقاعسوا في الالتحاق بصّفهم.

ذاعَ صَيتُ الحادثة بين تلاميذ المدرسة في الصّبيحة ذاتها، وسرت الشّائعات حول اكتساب المغفّل «إبسيلون» قدرةً فائقةً في الرّياضيات. كان في وسع فاراجي أثناء فترة الاستراحة، أن يلمحَ في العيون علامات الاهتمام، حتّى أنّه شاهد بعضهم يشير إليه بالبنان. اختلق من شهدوا الحادثة من صفّه تفسيرات متباينة، كان أكثرها شططا يتلخّص في أنّ جنيا تلبّس بالصّبي، وقد جعلت هذه الشائعة بعض البنات يتقافزن هرباً من طريقه مخافة أن تصرعهنّ «شياطين إبسيلون». لكنّه لم يحفل بذلك. كان يبحث عن صديقه رمضان، ممتلأ بشعور يغمره لأوّل مرّة. ظلّ طوال سني دراسته أشبه ما يكون بالظّلّ الذي لا يلحظُ أحدٌ وجوده من عدمه.

اقتضى الأمر منه سنواتٍ من الرّسوب حتّى أصبح يثير فضول البعض بصفته أبلهاً باقتدار فذّ. لكنّه اليوم يثير فضولا من نوع آخر. لم يكن يملك الكلمات لوصف أحاسيسه، بيدَ أنّه استسلم لها وهو يجلس على أحد كراسي السّاحة حيث وجد صديقه.

كان رمضان هو الشّخصُ الوحيد الذي يمكن أن يعتبره صديقا له، مع أنّهما نادرا ما يتبادلان أطراف الحديث أثناء جلساتهما الطّويلة. كان يجمعهما سوادهما وميلهما إلى الصّمت وفقرهما وافتقاد كلٍّ منهما لوالده وأشياء أخرى كثيرة، لكنّ أهمّ ما قرّبهما هو أنّ كلاهما محطُّ سخريّة لأقرانه.

لم تكن مسيرة رمضان الدّراسية على نفس الحدَّة من الرّكود، بيدَ أنّ فقر والدته المدقع بعد وفاة زوجها لم يسمح لها بكستوه كما ينبغي. كان لباسه أشبه بأسمال المشرّدين، باليا وفضفاضا، من الواضح أنّه يخصّ أشخاصا بالغين، وقد أعيدت خياطته كي يلاءم جسده الضئيل. اشتهر بمئزره الأسود والذي لم يكن في الحقيقة سوى عباءة أحد المحسنين تم تعديل تصميمها بشكل جذريّ. كان طبعه الصّموت ومئزره الأسود بين عشرات المآزر البيضاء هو ما أكسبه بين أترابه لقب «الظّلّ».

بدا واضحا أنّ رمضان يودّ قول شيء لصديقه، لكنّه ظلّ محجما عن الكلام. أطلق جرس الباحة رنينه، فقاما معا وتوجها نحو فصلهما في صمت. عندما جلسا إلى طاولتهما المعتادة في آخر الصّف ندّت عن رمضان كلمة واحدة.

- غريب!

أدرك فاراجي ما يقصده صديقه، ولم يردّ بشيء. كان يفكّر في استئناف رحلته بعد أن حقّق مبتغاه. خمّن أنّ هذا اليوم سيكون آخر يومٍ يرى فيه البلدة.

كان أستاذ مادة التّاريخ قد شرع في إلقاء درسه حين طُرق باب الصّف طرقا خفيفا، فتوجّه صوبه وخرج. لاحظ الصّبية في المقاعد الأماميّة أنّ الطّارق لم يكن

سوى أستاذ الرّياضيّات، فسرت بينهم همهمة والتفت بعضهم نحو فاراجي الذي أدرك أنّ للأمر علاقة بما حدث قبل فترة الاستراحة. لم يطل انتظاره، إذ دخل أستاذ التّاريخ بعد هنيهة وطلب منه التّوجه إلى مقر الإدارة لأمرٍ هامّ وعاجل.

مَوعِدُ عَيْدَه

رافقَ فاراجي أستاذَ الرِّياضيات فاجتازا باحة المدرسة دون أن يتبادلا أيّ حديث. خمّن أنّ الأستاذ اعتبر فعلته طيشا وسوء تصرف وأنّه قد اشتكاه إلى المدير، ما يعني أنّ في انتظاره جلسة توبيخ وعقاب. طفقَ يُفكّر فيما عساه يقول دفاعاً عن نفسه. دخلا إلى قاعة رحبة أين كان في انتظارهما أستاذان من المدرسة في مادّة الرِّياضيات. بدا من خلال الأوراق المبعثرة على الطّاولة أنّهم كانوا يزاولون أشغال اجتماع ما. لم يكن المدير هناك، ولا سكرتيره الذي يكتسب سمعته الذائعة كآلة عقاب بالغة الشراسة يتعدّى صيتها حدود المدرسة. «ليست جلسة عقاب إذن»، حدّث الصّبيّ نفسه. طلب إليه أحد الأساتذة أن يقعد على كرسيّ، ففعل. بادر بالحديث أستاذ مسنّ وخطّ الشّيب رأسه وشاربيه العريضين، فقال محدّقا من خلف نظّارته السّميكة إلى وجه فاراجي.

- أخبَرنا أستاذك أنّك امتلكت فجأة نبوغاً فذّا في مادّته.

قال ذلك وتلمظ ثم مطّ شفتيه بحركة خاطفة قبل أن يُردف،

- لا أحد منا يصدّق ذلك، لذا قطعنا اجتماعنا واستدعيناك.

شرع الأستاذان بعدها في طرح أسئلة رياضيّة متفاوتة الصّعوبة عليه، لكنّ فاراجي أبهرهما بإجابات دقيقة، كانت بقدر ما تبدّد شكوكهما فيما زُعم، تزرع في نفسيهما شكّا أكبر بأنّ من يريانه أمامهما ليس صبياً يافعاً. ران الصّمت على القاعة للحظة، قبل أن يقول الأستاذ المسنّ وهو ينزع نظّارته ويضعها على الطّاولة،

- يستحيل أن يُلمّ صبيّ في مثل سنّك بكلّ هذا الكمّ من المعرفة في مجال الرِّياضيات، أو في أيّ مجال آخر على الإطلاق!

لم يحر فاراجي جوابا والتفت إلى أستاذه الذي سأله لأوّل مرّة منذ دخلا إلى القاعة.

- أعرف أنّك لم تكن تفقه شيئا في مادتي... أنا أعرفك جيدا!... كيف تغيّر الأمر بين عشية وضحاها؟!

لم يجل بخاطر الصبيّ إلا حفنةٌ من الأجوبة عديمة النّفع، غير أنّ حكمة الصّمت لم تكن تعوزه. ظلّ يحدق في وجه أستاذه، مدركا أنّ الإجابة الصّريحة تعني كشف سرّه وهذا آخر شيء قد يفعله. كرّر الأستاذ عليه السؤال بعد أن رآه يستغرق في تفكير عميق.

- أعرف ذلك فحسب.

ردّ فاراجي بعد أن عجز عن إيجاد إجابة أوفق. عندها رفع الأستاذ المسنّ نظّارته إلى عينيه مرّة أخرى وقال في اعتراض يضيق به صدره،

- لا يمكن للمرء أن يعرف فحسب!... لا بد أن يعلّمه شخص آخر أو يقرأ كتبا!

شعر الصبيّ أنّه عثر على حبل للنجاة من ضيق المسائلة فقال،

- أقرأ الكتب... أقرأ الكثير منها!

فكّر أنّ كذبته هذه، على غرابتها، أفضلُ بكثير من الإفشاء بسرّه.لم يقتنع الأساتذة بحجّته، وغدوا على يقين أنّ وراء الأمر لغزا، لم يكن في وسع أيّ منهم أن يعثر على تخمين معقول حوله. لم يجدوا بُدّاً من صرف الصبيّ إلى صفّه بعد أن أعياهم الأمر.

مع انقضاء الفترة الصّباحيّة، وجد فاراجي نفسه يخرج من المدرسة محاطاً بجمع من الفضوليين أثارتهم الشائعات المتداولة. بعضهم تناهت إليه أنباء

موهبته الخارقة مع كثير من المبالغات، فجاء ليستقصي الأمر بنفسه. آخرون اعتبروه بطلا لمجرد أنّه أظهر أستاذ الرّياضيات المتغطرس بمظهر الأخرق. كان هذا بالنّسبة لهم إنجازا لا يُضاهى. راح لغط المتحلّقين حوله يجتذب صبية آخرين ممن حسبوا أنّهم سيحظون بمتعة التّفرج على شجار أو ما شابه ذلك، لكنّهم فوجئوا بكون الأمر لا يتعلق سوى بالغبيّ «إبسيلون». كان أمرا معتادا أن يشاهدوه وسط حلقة، يتعرّض للضّرب أو السّخرية، لكنّه يبدو الآن ممتلئا بالزّهو وهذا لم يكن عاديّا أبدا.

لم يحتج الأمر وقتا طويلا حتّى تحرّكت الغيرة في صدور بعضهم وهم يرون هذا الاهتمام الزّائد بشخص طالما اعتبروه تافها، فشقّوا طريقهم في الحشد حتّى وصل أوّلهم إليه وأمسك بياقة مئزره قائلا،

- ماذا حصل أيها الأبله؟ هل تبرّزت ذبابة الذّكاء في أذنيك؟

كان في وسع فاراجي أن يرى شرارة العراك في عيني غريمه، وأدرك أنّ وراء هذا الكلام ضربا مبرحا. لكنّ مجموعة من الأيادي امتدت لتدفع بالشقيّ بعيدا، وصاح أحدهم،

- دعه وشأنه!

ردّدت بضعة أصوات عبارات مشابهة، ثم وقف ثلاثة صبية حاجزا بين فاراجي والشّقيّ الذي اندهش لرؤيتهم يدافعون عنه، فراح يزبد ويرغي زاعقا وقد ألقى بنعليه ومئزره بعيدا،

- كيف تجرؤون، أيّها الحمقى!

ما هي إلا لحظة حتّى شبّ الشّجار، فانفتل فاراجي بعيدا يرافقه جمع لم يتعرّف على أحد منهم. كان في وسعه أن يرى العراك يحتدم ويغدو أكثر ضراوة بتدخل مزيد من مناصريه ومزيد من أصدقاء الشّقيّ. هذه أوّل مرّة يجد فيها

من يدافع عنه في موقف كهذا. أدرك أنّه أصبح بطلا في عيون البعض. البطل الذي قهر أستاذه المتغطرس، بيد أنّ الأغرب لم يكن قد حدث بَعد.

حينما التفّ فاراجي بمعيّة رفاقه مبتعدين نحو شارع جانبيّ، وجدوا قبالتهم «عَيدَه» صُحبة صبيّتين أخريين.كنّ يقفن وكأنهنّ ينتظرنّ أحدا منهم، بينما تعلّق بصر عَيدَه بفاراجي.

لا يختلف اثنان في أنّ عَيدَه أكمل صبيات المدرسة حَسنا وأكثرهن تأنّقا وغنجا، علاوة عن كونها مُجدّة في دروسها. وقع في حبال عشقها أكثر الصِّبيان، فجَهَرَ بذلك بعضهم على رؤوس الأشهاد، بينما كَبَتَ آخرون لوعتهم في أعماقهم، مع أنّهم اتّفقوا على أنَّ الكلمات والهدايا ورسائل الوله المكتوبة بدموعهم تهون في سبيل الظّفر بنظرة استحسان من عينيها العسليتين. لكنّها كانت تصدّهم جميعا، جازمةً أنّها لن تقبل هدية عاشق يتمسّح بأقدامها. ألجأ ذلك بعضهم إلى نسج قصص من وحي خياله حول مغامراته الغرامية مع عيده، وربما سردها على مسامع خلّانه الذين يعرفون أنها مجرد أحلام وردية، لكّنهم يتواطئون على الصّمت في انتظار أن يحين دورهم لسَرد شطحات عشقهم المجنون. على أنّ أكثر الصّبية خجلاً كانوا يكتفون باختلاس النّظر إلى خدّيها الناعمين، فيملأ ذلك صدورهم غبطةً وأمانيَ لا سبيل إلى تحقيقها، وكان فاراجي واحدا من هؤلاء.

كانت عَيدَه تقف أمامه وبسمة ساحرة تذوب على شفتيها. ألجمته المفاجأة وظل متيبّسا في مكانه. لم يصدّق أنّها تبتسم له. كان في وسعه أن يتقبل أيّ شيء عدا أنها تنتظره هو. أدرك رفاقه أنّه يفتقد الشجاعة كي يبادر إلى الحديث معها، فراحوا يشحذون همته كي يقترب منها طالما أنّها بادرت بمنحه الفرصة. لكنّه كان أكثر تخشّبا من أن يقوى على الإتيان بأيّ حركة. أخيرا تطوّع أحدهم ليزفّهُ إليها بدفعة قويّة، وجد نفسه يقف إثرها على بعد خطوة منها. كانت معتادة على تلكؤ الصّبية أمامها وانعقاد ألسنتهم، لذا ابتدرت قائلة،

- مرحبا!

لم يقل شيئا ولكنّه هزّ رأسه مغمغما بصوت غريب وتعذر عليه ابتلاع ريقه. انحنت برأسها قليلا دون أن تفارق بسمتها وأردفت تقول،

- سمعت أنّك موهوب في الرّياضيات. هل يمكنك أن تساعدني؟... أواجه صعوبة في فهمها ولم يتبق وقت طويل للامتحان.

سكتت منتظرة ردّه، لكنّه ظلّ واجما على حاله وكأنّما هو شبح شخص ميّت. كان يشعر وهو يقف معقود اللّسان أمامها، أنّه مطموس في ضباب الصّمت. تهيّأ له مرّة أخرى أنّه يعيش حلما وأنّ ما يراه ليس إلاّ أطيافا من نسج خياله. لاحظت هي شرود ذهنه وأدركت أنّه في غاية الارتباك، فاستأنفت حديثها.

- يمكنني المجيء إلى منزلكم بعد الظّهيرة. لديّ صديقة تعرف الطّريق إليه.

قالت ذلك وسكتت لبرهة قبل أن يغرّد صوتها «اتفقنا؟». امتلك فجأة شجاعة هائلة حين هزّ رأسه بالموافقة، فابتسمت ورفعت كفّها مودعة، قبل أن تغادر رفقة صديقتيها. أحسّ أخيرا باستعادة قدرته على التّنفس بشكلٍ طبيعي، وامتدّت إليه أيادي رفقائه الذين تابعوا الحدث المشهود لحظةً بلحظة، ثم راحوا يهزّونه بانفعال، كأنّهم يحتفون ببطولاته التي أصبحت تتوالى على مرأى ومسمع منهم. ساروا يتحلّقون حوله، يردّدون بعض كلام عَيدَه بتصنّع يضفي عليه مسحة إغراء ساخر. لم يتوانَ بعضهم في الحديث عن تخشّب فاراجي أمامها.

- لقد تحوّل إلى جسمٍ صلب! لا أملك كل هذه الشّجاعة، لو كنت مكانه لأصبحت سائلا أو غازا!

- كان جامدا من الخارج فقط، أما من الداخل فكانت «رقصةُ البَارود» تعتمل! أراهن أنّه كان في وسعه أن يصفّق بأردافه طرباً!

لم تَحُلْ وقاحة كلماتهم دون شعوره بفيض نشوةٍ غامرةٍ، وقد أجمعوا أنّ

الحظّ ابتسم في وجهه بشكل لا يصدّق. بدا سعيدا بتواجد كلّ هؤلاء الأصدقاء الجدد من حوله، رغم افتقاده لرمضان الذي غاب عن بصره. كان يعرف أنّ صديقه لا يحبذ التّجمهر واللّغط. ودّ لو يجده ويهبّ راكضا نحوه صارخا بأعلى صوته،

- رمضان!.. رمضان!.. تحدثت معي عَيدَه!

تساءل كيف ستبدو قسمات وجه صديقه حين يزفّ إليه هذا الخبر الاستثنائي. سيكتشف ذلك حين يلتقيه في حديقة الحي مساء اليوم، طالما أنهم لا يدرسون فترة ما بعد الظّهيرة.

فكَّر فاراجي أنّ أمّهُ ستلاحظ حتما ما طرأ على حياته من تغيير، وربما تناهى إلى مسامعها ما حدث في المدرسة. لن يسعه إقناعها أنّ نبوغه المفاجئ كان هبةً من السّماء أو أنّه استعان بالكتب كي تتفتّق موهبته، فهي تعلم أنّه لا يطالع شيئا، مع أنّ رفّ غرفته الخشبيّ يضمّ مجموعة من الكتب العتيقة التي قدّمها المحسنون ضمن معونات تتلقّاها الأسرة بين الفينة والأخرى. خطر له ذات مرّةٍ أن يستطلع بعضاً منها، فهي تقبع بغرفته منذ زمن دون أن تلامسها يداه. لم تكن هناك ليطالعها أساسا، إذ أنّ العالية وجدتها مُنضّدةً في قاع إحدى العلب الكرتونيّة التي حوت بعض ملابس الصّدقة، فنظرت إليها شزرا قبل أن تركلها بعيدا بقدمها نَاقمَةً،

- المخنثون! يستعملوننا للتخلّص من قذاراتهم!

ثم طلبت من ابنها أن يحملها ويضعها في غرفته، فما كان منه إلّا أن صفّها على اللّوح الخشبيّ دون تصفح أيّ منها. لكنه فوجئ بعد أيّامٍ، بوجود العالية في غرفته وهي تمزّقُ أوراق أحد الكتب. بررت فعلتها قائلة،

- أعلم أنّك لا تقرأها... ولكنّني أنبهك أنّها ليست عديمة الجدوى، كما اعتقدتُ في البداية!

ثم صمتت للحظة كي تسترعي انتباهه قبل أن تضيف،

- يمكننا استعمالها في دورة المياه!... الماءَ ينقطع لأيام عدّة في هذا الحيَ المشئوم.

من يومها صار يتواجد كتابٌ على الدَّوام في دورة المياه. اكتشف فاراجي بهذه الطَّريقة أنَّ بعض ما لديه من كتب يحتوي صورا لتماثيل عارية، وهو ما بدا له أمراً غير اعتيادي. كان ينشغل مقرفصا أثناء قضاء حاجته بالبحث عن صور التّماثيل بين صفحات الكتاب وحين لا يعثر عليها، يكتفي باستعمال نتف الأوراق الممزّقة الحوافّ.

عَقَدَ العزم وهو يسير ضمن كوكبة رفاقه على التّظاهر أمام والدته بمطالعة ما لديه من كتب، حتّى لا يشكّل خبر نباهته المفاجئة صدمة لها. خطر بباله أنّ العجوز قد يتمكن لاحقا من شحن ذهنه بمختلف المعارف، لذا عليه امتلاك مجموعة متنوّعة من الكتب تبرّر الأمر في البيت على الأقلّ. نقل انشغاله إلى رفقائه مقاطعا مَرَحَهُم،

- احتاج إلى كتبٍ في كلّ الموادّ!

نظروا إليه باستغراب في بادئ الأمر، ثمّ سرعان ما انهالت عليه عروض الإعارة ووعود العطايا. قال أحدهم أنّه يمتلك سلسلة جديدة يهتم كل جزء منها بمادّة معينة، وقال آخر أنّ مكتبة والده مليئة عن آخرها بالكتب وأنّ في وسعه زيارته وأخذ أيَ كتاب يريده. ارتسمت على محيا فاراجي ابتسامة سرور صادق وأدركَ أنّه يعيش حلماً لا يرغب في انتهائه أبداً.

زِيَارَاتٌ غَرِيبَة

وَصلَ فاراجي إلى البيت أخيرا فدلفَ الباب داخلا وعَبَرَ الرَدهة أين يقبع خالهُ المحفوظ منشغلاً كعادته بهزِّ ظهره جيئةً وذهاباً إلى الجدار، بينما رُبطت ساقاه بحبلٍ من قماش. دأبت العالية على عقابه بهذا الشَّكل كُلَّما زحف إلى خارج البيت، مع أنّه لا يفعل ذلك إلا لَمَاماً. كان ظهوره في الزّقاق حدثاً يجمع حوله بعض سكّان الحيِّ ممَن يغدقون عليه عطاياهم، ويأملون أن تغشاه إحدى لحظات صحوه، فينطق لهم بكلمة أو كلمتين تكشفُ لهم عن حكمة دفينة، يتلقّفها من وُجَهت له بكثيرٍ من الوقار. بيدَ أنّ العالية كانت ترى في خرجاته الزّاحفة ما يجعل منها أضحوكةً بين نساء الحيِّ اللائي تلوك ألسنتهنّ سيرتها وحظّها العاثر.

أطلَّ الصّبيّ برأسه إلى المطبخ. كانت هناك منشغلة بتقطيع شيء ما. اعتقد أنّها لم تره وهو ينسلّ إلى الدّرج صاعدا نحو غرفته، غير أنَّ صوتها وصله آمراً،

- غيّر لباسك وأغسل يديك. سيجهز الغذاء قريبا.

خمّن أنها لا تزال حانقة عليه، وأنَّها قد تعيد النَّظر في تصرّفها معه حالما تدرك أنَّه أصبح شخصا غير الذي عهدته. دخل غرفته ورأى الفوضى تعمّ أرجاءها. كان فيضٌ من الحماس يملأ جوانحه، فأخذ يرتِّبَ أغراضه مفعما بأحلام اليقظة حول الحسناء التي أغدقت عليه بوعد زيارتها له. طفح صدره بحبورٍ لم يذق طعمه أبداً، حتّى أنَّه خشي أن يتوقّف وجيب قلبه. راح يستعيد رنّة صوتها العذب في أذنيه. تراقصت الفرحة في عينيه مثلما لم تفعل من قبل. استشنع تيبّسه حين وقفت أمامه وهي التي كان يكفيها أن تقول لأحدهم «أرقص!» حتّى ينخرط في نوبة رقص هيسترية لا تنتشله منها إلاّ سقطة الإغماء. انتهى أخيرا عند كتبه العتيقة. قلّب صفحاتها على عجل علّه يجد بينها كتابا في الرّياضيّات، ثم اكتفى

بتوضيبها وقد خاب أمله. فجأة تناهت إلى سمعه أصوات غريبة، تلاها بعد هنيهة وقع خطوات أمّه على الدَّرج قبل أن تفتح الباب وتقول بصوت جافٍ،

- أصدقاؤك في الأسفل!

لم تكن قادرة على مواربة استغرابها، فهي لم تعهد أن يزروه أحدٌ عدا رمضان. نزل إلى الطّابق السّفلي، أين وجد ثلاثة من رفاقه الذين شيّعوه قبل قليل، يحمل كل منهم مجموعة كتب بين يديه. لم يعتقد أنّهم سيلبّون طلبه بهذه السّرعة. طلب منهم الصّعود إلى غرفته أين وضعوا الكتب على السّرير. استغرب أحدهم من آثار الفوضى المتبقية،

- لطالما اعتقدت أنّ العباقرة فوضويون... مع أنّني لا أفهم أبدا كيف أصبحت واحدا منهم!

سألهم فاراجي عمّا قالوه لوالدته وبِمَ ردّت عليهم. كان يخشى أنّ أحدهم أخبرها بما حدث في المدرسة هذا الصّباح، لكنّهم أكّدوا له أنّهم لم يخبروها شيئا، عدا كونهم يجلبون كتبا كي يتسنّى لهم استعمالها للمذاكرة سويّةً، وأنّها عقدت حواجبها مندهشة إثر سماع ذلك. عَلِمَ أنَّ الأمر سيَبسطُ على مائدة الغذاء ولن يقف عند هذا الحدّ.

انشغل مع رفاقه بتقليب أوراق الكتب وكان أحدهم يلحّ عليهم أن يطّلعوا على كتاب ضخم، وصفه بأنّه موسوعة تشمل جميع العلوم، فراحوا يتصفّحونه. بدا لهم أنّه يحتوي الكثير من الكتابة، لكنّ صور المنحوتات العارية شدّت انتباههم. أكّد فاراجي أنّه رأى بعضها آنفا، وسرعان ما أخذت أصوات ضحكاتهم الماجنة تصل إلى العالية، فأثار الأمر حفيظتها ووقفت عند الدّرج تزعق زاجرة،

- فارجي!.. فاراجي!

أدرك فاراجي أنّه يتوجّب عليه إنهاء مغامرة زوّاره حالا، فأخبرهم أنّه سيطّلع

على بقيّة الكتب لاحقا وساقهم إلى الدّرج بعد لحظات. لم يغفل رفاقه في طريقهم إلى الخروج أن يلقوا التّحية على العالية وقد بدت وقفتها المتصلّبة وسط الردهة أشبه بوقفة عسكريّ مُستَنفَر.

حَفَلَ الجلوس إلى مائدة الغذاء بأسئلة التّحقيق الذي لم يبدأ بعد. تبادلا إيماءةً باردةً قبل أن يكتنف جلستهما صمتٌ ثقيلٌ، راح فاراجي خلاله يمضغ طعامه برتابة مصغيا إلى صوت كلّ قضمة يقضمها. نظر إلى خاله الذي وضع صحن المرق على فخذيه وأخذ يحفن منه بكفه ويسوقه إلى فمه فيتساقط جُلُّ ما حمله على قطعة قماش كبيرة ربطت إلى عنقه. بدا وكأنّ العالية تتغاضى عن ذلك. كانت تغدو أكثر حنواً عليه حين تفرغ من عقابه، وربما اعتراها شعور مؤنّب بأنّه لا ذنب له في عجزه، وأنّه حريّ بها أن تصطبر عليه أكثر نظيرَ رِفقه بها حين كان على أشدّه، لكنّ صدرها كان يضيق بأيام شقائها فلا تعرف كيف تصب عليه جام حنقها بغلظة.

كان المحفوظ يشعر بالوحدة تلفّ أعماقه مذ أصبح عاجزا عن السّير وعن التّمسك بصفاء ذهنه أغلب ساعات اليوم. لم يكن يدرك أنّه يفقد رشده ولا يسترده إلا للحظات معدودة، لكنّ الأيّام صارت تبدو له كوميض يتعاقب خلاله النّور والظّلام بشكل لا يسعه استيعابه. لم يستصغ كون أغلب حديث العالية معه تقريع على أشياء لا يذكر أنّه فعلها، أما فاراجي فقد بدا له كشبح يعيش في عالم آخر. ربما استشعر أحيانا أنّه بحاجة لأن يحتضن هذا الصّبيّ إلى صدره متوسّما فيه صِباً يحنّ إليه، فيحاول مناداته بغمغمة مبهمة، بيدَ أنّ فاراجي كان يرمقه بنظرة خاوية محاولا لبرهة فهم همهمته، قبل أن يبتعد مواصلا طريقه إمّا إلى غرفته أو إلى الشّارع. كان ذلك يُشعر المحفوظ بضيقٍ لا حدود له. لا يعرف كيف تغدو الكلمات على لسانه مجرد همهمة يفسّرها الآخرون على أنّها هذيان رجل أهبل. المشكل أنّه كلّما أراد إيضاح كلامه، زاد ذلك من عبثيّة موقفه وبدا أكثر جنونا. كان هذا يُمتع قاطني الحيّ بشكل ما، لكنّه آخر شيء يمكن أن تحتمله العالية. في أحايين نادرة جدًا، يبدو وكأنّه استعاد عقله وطلاقة لسانه معا، فتكون

لحكمته المتجليَة التي يتلقّفها سكّان الحي أثرا بليغا لدى سامعيها قد تشغل مجالسهم لأيام متوالية وتتناقلها الألسن داخل البيوت وخارجها، مثلما حدث مع مقولته «الخوف... ألم» التي ذاع صيتها في الحيّ وتضارب شيوخ الشارع في تبيان فَحوَاها، بين قائل أنّها تكشِفُ حقيقةَ الخوف بصفته هروبا من الألم إلى الألم، و بين من يرى أنّها تجعل من الخوف ثمرة من ثمار الألم، في حين اقتصرت النِّسوة على فهم المقولة بوصفها تعكس ببساطة ما يعانيه المجنون في البيت من أهوال.

- ما قصّةُ هؤلاء؟

أخيرا حطّمت العالية جليد الصّمت البارد، ففكّر فاراجي بأنجع الرَدود التي ظلَّ يجيلها بخاطره.

- سوف نذاكرَ سويّة.

قال ذلك وركن إلى الصّمت ليسترق النّظر إلى وجهها، مدركاً أنّ جوابا كهذا قد لا يقنعها. كان محقًا في تخمينه، إذا أنها هزّت رأسها وقالت بنبرة تطفح بالخيبة،

- هل تحاول إقناعي أنّ الضّرب صار يجدي معك أخيرا! وبعد أيّ شيء! بعدما صِرتَ على أبوب الطّرد! هه!

كانت أحداث ليلة البارحة وصبيحة اليوم قد أنسته الألم الذي ناله على يديها، لكنّه خمّن أنَّ تفكيرها بنجاعة تصرّفها الأهوج، أيسر بكثير من محاولة إقناعها بتفتّق مواهبه بين يوم وليلة. لم يقل شيئا. اكتفى بالتحديق إلى خاله الذي بدا وكأنّه يعيش إحدى لحظات صحوه، إذ وصل إليهما صوته متهدّجا،

- لَوم!... لَوم!

انشقل حاجبا العالية في استغراب وهي تمعن النّظر في وجه المحفوظ الذي

ظلّ منكباً على صحنه. اعترى فاراجي شعور غريب. كان يشهد أحيانا لحظات صحو خاله، لكنّها أوّل مرّة يحسّ فيها أنّه يدافع عنه. ضجّت العالية بالتّهكّم ناقمةً وأمَرت فاراجي بالصّعود إلى غرفته فوراً. كان يدرك وهو يغادر المائدة أنَّ خاله في مأزق بسبب ما قاله وأنَّ صراخه قد يتعالى زمنا قبل أن يُخمد الألم فورةَ صحوه. لكنَّ الأمر لم يطل كثيرا كما اعتقد، إذ خبا الصراخ بغتةً، وسرعان ما صعدت العالية إلى غرفته وفتحت الباب بفظاظة.

- هناك فتاةٌ تسألُ عنك!

حدَّثَ فاراجي نفسه «عَيدَه!» واعترته رعشةٌ سَرَتْ بكامل جسده.

الكَابُوس

كان فاراجي يُدركُ أنَّه يعيش يوماً استثنائياً يَحفَلُ بالأحداث الغريبة، بَيدَ أنَّه لو لم يحدث شيء في هذا اليوم سوى مجيء «عَيدَه» إلى المنزل، لظلَّ رغم ذلك أسعد أيّام حياته. كانت ابتسامته المشرقة تشعُ من أعماق قلبه. لم يكد يصدِّق أنَّها معه في غرفته، يجلسان جنباً إلى جنب وينشغلان بمذاكرة بعض المسائل الرياضيَة. شعر أنَّ سحرها الدافئ يغمر المكان. كانت تسأله بابتسامة بريئة فيجيبها بشغف، راسماً رموزاً وأشكالا على كرَاسته كي يجعل شرحه أكثر وضوحا وبساطة. لم يتصوَر أنَّ الهبة التي ساقه لها القدر ستُحدث في حياته تغييرا هائلا منذ أوَل يوم. راح يختلس النَّظر إلى شعرها الحريريَ النَّاعم ووجنتيها الموردتين. بدا له أنَّ رائحةً زكيَةً تتضوَعُ منها، تلُمَ في كنفها عَبَقَ كلَّ أزهار الدَّنيا. غمرته سعادة لا توصف، وطفق قلبه يخفق بين جوانحه كلَّما أوردت عبارةً تنمَ عن إعجابها بنباهته.

- يبدو هذا أكثر بساطة ممّا اعتقدت... أنت موهوب حقًا!

قالت ذلك وقد ترقرقت شفتاها بابتسامة خجلة. كانت كلماتها تبدو له كمجموعة من النَّغمات الجميلة، يُرهف لها سمعه وكأنَّه لن يتأتَّى له سماع هذا العزف الفريد مرةً أخرى. لا شيء في وسعه ملأ صدره حبورا بقدر ما ملأه إطراؤها له. كان يُوشكُ أن يذوب بقربها حين انتشله طرقُ الباب من هذا النعيم. هزَت قلبه رجفة متشنِّجة. خشي أن تتصرَف والدته بغلظة كما فعلت مع رفاقه، لكنَها دخلت عليهما حاملةً صينية القهوة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة. أطلَّ نحو الصَينيةِ وكأنه لا يصدق الأمر ورأى بها صحنا يحتوي بعض المرطَبات وصحناً آخر به بعض الحلوى الهلامية. لا يعلم لم تصرَ على جلب الحلوى الهلامية كل مرَة مع أنَّه لا يحبها أبدا.

جعل ينظر إلى عينيها. لم تكن فيهما تلك النظرات النّاقمة المعتادة، بل يكاد يجزم أنَّ فيضا من الحنوَ يشعُّ منهما. لم يستيقن فيما إن كانت ملامح وجهها مختلفة حقّاً أم أنَّ وجود عَيدَه بقربه يضفي على الأشياء مسحة من البهاء والرّونق.

لم يدر أنَّ العالية ظلّت تتنصّت عليهما قرب باب الغرفة مدَّة طويلة، قبل أن تقرّر فعل شيء آخر. تعذَّر عليها أن تستوعب ما يحصل مع ابنها الذي لم تعهد له سوى صديق واحد، لكنّها تراه اليوم يملأ عليها البيت بأصدقائه، وبينهم صديقة أيضا! أين ذهب خجله من الجميع ومن البنات على وجه الخصوص؟ كيف غدا يستفيض في الحديث وهو الذي كان أميلَ إلى الصّمت؟ راحت الأسئلة تتوالى بذهنها، دون أن تجد لأيّ منها جوابا مقنعا. أرهفت السّمع عبر الباب زمنا عساها تكتشف عبثاً، يتيح لها أن تطرد هذه الصّبية التي تضيّع وقت ابنها ولعلها تفسد طباعه أيضا، علاوة عن كونها من بنات المرابطين الذين يأنفون الاختلاط بالسّود. لكنّها أضحت مشدوهة وقد خاب أملها. لم يتكلّما مذ دخلا عن أيّ شيء عدا دروسهما. أشياء تتعلّق بالحساب على حدّ فهمها. «إنهما يدرسان حقّاً!» غمغمت بصوت خافت وقد شعرت بتنمّل ساقيها.

أدركت أن صبيّها يسلكُ منعرجا حاسما في حياته وأنَّ شيئا ما دفعه لأخذ دراسته باهتمام جادٍّ بعد أن أهملها لسنوات. ربما كانت الصّبية وراء ذلك، وربما أسهم ضربها المتنمّر له على تحفيزه كي يحاول بذل مجهود لائق، مع أنّه تأخر في ذلك كثيرا. فكّرت أنَّ في وسعها تَرجّي مدير مدرسته، ما دام الصّبيّ قد أظهر كلَّ هذا الجِدّ.

تذكّرت كيف فقدت أعصابها نهار أمس وراحت ترفسهُ بقدميها، وتغرز أظافرها في أنحاء جسده، قبل أن تقطّع عليه قميصه. جرجرته من غرفته إلى أسفل الدَّرج غير عابئة بإمعانه في التوسّل والبكاء، ثم توجّهت به نحو المطبخ وأوثقت رباطه بوشاحها. ظلّت ترشقه بثُلّة من الأواني حتّى وجدت سكّينا فحملته وجَثَت واضعة إياه على عنق الصّبيّ الذي غيّب الخوفُ الحياةَ من

ناظريه.

- يا لطيف! كنت سأذبح ابني في لحظة جنون!

اعتراها إحساس عميق بالذّنب وطفرت الدّموع من عينيها. شعرت برغبة جامحة في ضمّه إلى صدرها الفارغ، وهي تقف متنصّتةً عند باب غرفته قبل أن تندّ عنها تنهيدة متوقّدة، كبتتها حتى لا ينكشفَ أمرها وأسرعت بنزول الدّرج متجهةً صوب المطبخ.

هبط المساء أسرع ممّا كان يأمل فاراجي. شعر حين راحت عيده تودعه عند باب المدخل أنّه يرغب ببقائها معه إلى الأبد وأنّ خطواتها وهي تبتعد بقامتها الممشوقة وابتسامتها الفاتنة، تسرق معها شيئا من داخله لا يسعُه التّخلي عنه. اتفقا على اللّقاء غدا في نفس الوقت، ولكنّ الغد بدا له موعدا موغلا في النّأي. اقتعد العتبة وطفق يرقب المارّة شارد الذهن يغوص في أحداث يومه العجيب. كان يطفو في مزاجه السّعيد.

حين جَلسَت العَالية قبالته إلى مائدة العشاء، بدا وكأنهما شخصان آخران. لم تفارق البسمة أياً منهما وشعرا أنّهما متناغمين بشكل لم يحدث منذ أمد بعيد. فكّر في آخر مرّة رآها تبتسم له، ولم يستطع تحديدها بالضّبط. كانت ابتسامتها نادرة إلى حدٍّ أنّ وجهها المتغضن بدا له مختلف الملامح. أحسّ أنّها تسعى لتكون أكثر لطفا معه، فقد أثنت على محاولة استدراك دراسته، كما وعدته أن تقابل مدير المدرسة بشأن التّراجع عن قرار طرده.

- سأبذل كل ما في وسعي، شريطةَ أن تعدني بأن تفعل ذلك أيضا..؟

أومأ برأسه أنْ نعم، وأحسّ أن تغييرا عميقا قد طرأ على حياته وأنّه يستطيع بيقين كامل أن يلمح بوادره على أكثر من صعيد. حتّى أمّه التي كانت تقضي نهارها في ندب حظّها التعيس و إطلاق النّعوت السّاخطة عليه وعلى خاله المريض، صارت تجد متّسعا من رحابة الصدر كي تشحذ همّته وتحثّه بنبرةِ حنونة.

تراءى أمامه طيف العجوز، وودّ لو التقى به اللّحظة وحدّثه عن كلّ ما حصل معه. إنّه الشّخص الوحيد الذي في وسعه أن يحكي له كلّ شيء. انتابه بعض التّوتر، وقد تذكّر موعدهما. لا يعرف متى سيأتي بالضّبط إذْ لم يتّفقا على وقت محدّد. كان ينتابه إرهاقٌ مضنٍ، فهو لم ينم ليلة البارحة إلاّ زمنا يسيرا، ولو لم يكن يومه حافلا بالإحداث لأخلدَ إلى النّوم قبل حلول الظّلام. ترك المائدة وقد فرغ من تناول طعامه.

- لا تنسَ أن تُغلق النّافذة، فالجميع يتحدّث عن ذلك اللّصّ الذي سرق أبسطَة المسجد، عليه اللعنة!

- حسنا.

قال ذلك ثمّ صعد إلى غرفته وأوصد بابها. كان يأمل أن يهبط النّوم عليه في زمن يسير، لكنّه تمدد على فراشه يتأمل السّقف الرمادي وقد عاوده التّفكير بعَيدَه. لم يعد يشعر برغبته في الرّحيل بعد أن أشرقت حياته بصداقتهما. خمّن أنّ يوماً واحداً من لقائه بالعجوز منحه حياةً حافلةً بمشاعر لم يختبرها من قبل.

وجدَ نفسه ينهض ليفتح النّافذة ويتطلّع إلى الشّارع. كانت نسائمُ اللّيل النّاعمة البرودة تهبّ بلطفٍ على وجهه، فشرد بخياله مع طيف مَلاكه ولم يشعر بالنّعاس يتسلّلُ إلى عينيه وهو يستند برأسه إلى أحدِ مصراعي النّافذة.

راوده حلمٌ غريب. رأى نفسه يغوص في أغوار بحر سحيق. لم يكن وحيداً. كانت هناك بقعة من النّور تتبعه حيثما ذهب وتسمح له برؤية القَعْرِ الدّافئ. سمع ضحكاتٍ عذبةٍ تتردّدُ من القّاع. لم تكن تصدر من مكانٍ محدّد، لكنّها كانت ناعمةً تشبهُ إلى حدٍّ بعيدٍ ضحكات عَيدَه. راح يدور حول نفسه، ثم التفت صوب مصدر النّور وودّ لو وسعه أن يزيد من شدّته. خطر بباله أنّ النّور لم يكن سوى عَيدَه، فأراد الوصول إليه. جدّفَ بيديه وقدميه. بدا أنّه يُراوح مكانه. فَقَدَت الضّحكاتُ نعومتها شيئاً فشيئاً وغدت خشنةً وطافحةً بالسّخريةِ، يتردّد صداها

عبر الماء فينقبض لها صدره. فجأةً بدأ النّور يَبهتُ، تاركاً خلفه حشدا من العيون ترمقهُ بنظراتِ تُضمر الشَّر. حاول أن يصرخ لكنَّ الماء دخل إلى جوفه وحبس أنفاسه. اقتربت منه العيون أكثر وتكشَّفت عن أسماك صغيرة غاضبة تنظر إليه بحقد. كانت بشعة ومقزِزة. حاول الابتعاد منها، لكنّها التفَّت حوله وفغرت أفواهها ثم هاجمته. كانت تطبق أسنانها على رأسه وكأنَّها تسعى لتُحدث فيه ثقبا. أدرك بشكلٍ ما أنَّها تحاول الاقتيات من دماغه. حاولَ طردها بيديه، فلم تزدد إلاَّ تكالُباً، حتّى لم يعد في وسعه احتمال الألم. استجمع كلَّ قواه في صرخةٍ واحدةٍ، استيقظ إثرها وقد تصبّب جبينه عرقا وسال لعابه على حافة النّافذة. تسارعت أنفاسه وهو يدعك عينيه، وكأنَّه لا يصدِّق أنَّه مجرّد كابوس، قبل أن تصيبَ رأسَهُ حصوةٌ صغيرة. انتبه إلى وجود العجوزِ يقفُ في الأسفل وسط حيزٍ من الظَّلام. «لابدَّ أنَّه حذفني بأكثر من حصاة!» حدَّث نفسه وهو يتحسّس موضع الألم برأسه حيث كانت تقضمه الأسماك.

تسلّلا عبر الأزقَّة في دجنة اللّيل، حتّى بلغا حاوية قمامة كان الرّجل قد ركَنَ قربها دراجته الهوائيّة تلافياً لإثارة الشُّبهة. بدا أنَّ الوقت متأخِّر وقد خلت أغلب الشَّوارع الغارقة في قتامتها من أيَ حركة.

صَدْمَةُ التَّهافُت

في طريقهما عَبْرَ الفضاء المقفر، كاد فاراجي أن يسقط مرّتين وهو يغالب النّعاس الجاثم على جفنيه. راح يجتهدُ في التّمَسّكِ بمرادفه، فاركاً عينيه تارةً ومتثائبا مطوّلاً تارةً أخرى.

- ثمان حصي قبل أن تستيقظ! لحُسن الحظّ أنّك وضعت رأسك في المكان المناسب!

قال العجوز ذلك وأنهى عبارتهُ بضحكةٍ عابثة، قبل أن يمتدح براعته في تسديد الحصى. كانت هذه لعبته الوحيدة التي يُسلّي بها نفسه في العراء حين يملّ ركوب الدّراجة. ظلّ يتحدّ ث وحده أغلب الوقت دون أن يفطن لإغفاءات الصّبي التي لم تنقطع آخر حبالها إلاّ بعد أن راحت الدّراجة تعلو وتهبط على الأرض الصّخريّة المنبسطة وقد قاربا وصولهما إلى التّلال. حاول التّشبّث أكثر بالعجوز الذي أمعن في إعمَال دوّاساته متحمّسا لبلوغ مختبره. رفّ قلبه حين سأله الرّجل عن يومه، إذ تذكّر فتاته وردّ مُنفعلاً،

- لن تصدّق ما حصل!

أنشأ يسرد تفاصيل يومه الحافل. كانت فورة انفعاله تحتدّ شيئاً فشيئاً فتجعله ينطّ من حدثٍ لآخر، بينما يُطلق العجوز صيحة استغراب بين فينةٍ وأخرى.

- غير معقول!

لم يتوقع أن يُحدثَ ابتكاره كلَّ هذا الأثر في حياة الصّبيَ منذ أوّل يوم. ألحّ على التّحقق من أنّه لم يُطلع أحداً على سرّهما، وحين اطمأنّ لذلك، أوصاه مرّة

أخرى بضرورة التزام أقصى درجات التّكتم.

- لا يمكنك أن تتصور ما قد يفعله أولئك الأوغاد إن علموا بالأمر!

كانا يدلفان إلى المغارة، حين طفق فاراجي يصف جمال عَيدَه وكيف أنَّه قضى أسعد لحظات يومه برفقتها. تابع العجوز حكايته بشغف، راسماً على وجهه ابتسامةً عريضةً، ثم علّق وكأنّما يحدّث نفسه،

- ها أنت تقع في شراك حبَ الصّبا!

و سكت هنيهةً سرح فيها بخياله ثمّ أضاف،

- حين تصيبك سهامه يسكنكَ ليلٌ دامسٌ ويغدو حبيبك بدراً يشعُّ في أعماق قلبك، لذلك لا ترَ شيئا سواه!

هبطت هذه الكلمات على رأس الصّبيَ كالصّاعقة وراح يقلّبها بخلده، محدّثا نفسه أنَّ الجميع كان يحبّ عيده وأنَّه لم يكن استثناءَ. لم يدرك أنَّ العجوز يتحدَّث عن لُجّة بحرٍ لا يسهل على غرٍ مثله سبر أغواره. جَاشَت خواطره متسائلاً إن كانت عَيدَه تحبَه، أو على الأقلّ إن كان في وسعها أن تحبَه يوما. لعلّها تُكنّ له بعض الإعجاب، وقد تكون مجرَد صبيَة مُجدَّة علمت أنَّ في إمكانه مساعدتها. لم يستطع الجزم بأيَ خواطره أقرب إلى الحقيقة، ولم ينتشله من دوامة سهومه إلا صوت العجوز يُعدَّ الأريكة.

- هيَا أيّها العاشق الصَغير! علينا أن نجري اختباراً حول مدى استقرار تَراكُب الشَّحن بدماغك.

جَفَل فاراجي وهو يحاول تذكُر المسائل الرَياضيّة التي انشغل بها طيلة اليوم. لم يَعُد يذكر كيف قام بحلّ أيَ منها. ارتاع وهو يكتشف أنَّ موهبته تلاشت بشكلٍ ما، وكأنَّ ما عرفه امّحى من ذاكرته تماماً. وجم متيبسا ورمق العجوزَ بنظرة تمتلئ

ذُعراً، قبل أن يصرخ،

- فقدتُ قدرتي على فهم الرّياضيّات! أشعر أنّني لا أعرف عنها شيئا!

قال ذلك مضطربا وأمسك بذراع الرّجل. كانت يداه ترتعشان، وبدا أنّه لم يعد في وسعه التّحكم في حركات أطرافه، إذ ارتخت ساقاه وهوى مفترشاً الأرض. كان الذُهول يسيطر عليه وطفق يردّد هائجاً،

- لم أعد موهوباً! لم أعد موهوباً!

حاول العجوز تهدئته دون أن يُفلح، فحمله بمشقّة وربط يديه وقدميه إلى الأريكة، ثمّ وضع الخوذة على رأسه. سعى جاهدا كي يتغلّبَ على اختلاجات جسد الصّبيَ، الذي أضحى كلامه أقرب إلى الهَذْرَمَة وراح ينتفض مرات متوالية حتى خارَ جهده وأسبلَ جفنيه مستسلماً.

استغرق فاراجي زمناً قبل أن يستفيق ويجد نفسه ممدّدا على البساط الخشن. كان الصّداع يشدّ رأسه. تطلّع إلى معصميه فلمح آثار الأربطة بادية عليهما، بينما انهمك العجوز يستغرق في التّحديق إلى شاشته مأخوذ اللُبِ. بالكاد وسعه أن يعدل جلسته على البساط. ظلّ مطرقاً برأسه حتى استعاد كامل وعيه. تذكّر أنّه خسر موهبته، فاعتراه انزعاج وضجّ بقلقه قائلا،

- انتهى كل شيء!

انتبه الرّجل لتيقُّظه وتوسّم الفزع في تقاسيم وجهه. كان يدرك أنّه لم يتحمّل صدمة فقدان نبوغه بعد أن منح حياته طعماً آخر بين ليلة وضحاها. استشعر مدى اعتمال الأمر في خلد الصّبيَ الذي راح يفكّر بأساتذته وقد اعتقدوا أنّه غدا عبقريّا بطريقة ما، وفكّر في رفقائه الجدد الذين يرون فيه بَطلهم، وفي عَيدَه التي تعتمد علاقتها به على تفوّقه. لقد أضفت على عالمه بهجةً لا توصف، بعد أن كانت مجرد طيفٍ يُسلّي به أحلام يقظته كالباقين إبّان فترات استراحاته المدرسية

الخاوية. خمّن أنّ والدته ستكون أكثر شخص يشعر بالخيبة حياله إن عاد إلى سابق عهده. سيكون ذلك مؤلما. رَنَا بناظريه إلى العجوز الذي استشف ما يعتصره من أسى فتحرك صوبه وربَتَ على كتفه مطمئنا.

- ليس الأمر بهذا السّوء!

تأمله فاراجي بعينين زائغتين. ودَّ لو يصدِّق ما يسمع منه، لكنّه يحسّ أنَّ المعرفة التي كانت تملأ ذهنه ليلة أمس قد تلاشت وتركت خلفها فراغاً رهيباً. بادر الرّجل إلى تبديد مخاوفه قائلا أنّه كان يتوقع أن تتلاشى المعلومات.

- لذا طلبت منك أن نلتقي اللّيلة... اعتقدت أنَّ الأمر قد يستغرق فترةً أطول... كان تراكب موجات الشحن المعلوماتيّ مع موجات المادَّة في دماغك غير توافقي... لقد تهافت بسرعة فائقة.

قال ذلك وانغمس في تفكير عميق. لم يستوعب الصّبيّ سوى أنَّ العملية قد لا تنجح لأكثر من يوم واحد، فسأل عن إمكانية إعادة عملية الشّحن حتى لو اقتضى الأمر القيام بذلك يوميا.

- سنضطر إلى فعل ذلك! يجب أن أراقب عملية التّهافت في ذروتها.. يجب أن نلتقي ظهيرة الغد.

هزّ فاراجي رأسه بالموافقة غير مبالٍ بأيّ وقت يتعيّن عليهما الالتقاء، طالما أنَّ ذلك سيمكِّنه من استعادة موهبته. سرى إلى نفسه بعض الارتياح وما هي إلا دقائق معدودة حتّى كان العجوز يساعده على اقتعاد الأريكة مجدَّدا، استعداداً لعملية شحنٍ ثانية. اتفقا أن لا تقتصر حزمة المعارف المبرمجة على الرّياضيّات فحسب، بل ستشمل جملة من العلوم الأخرى.

- سيسمح ذلك باختبار تأثير محتوى الحُزمة على سرعة التّهافت.

قال العجوز ذلك واستغرق يباشر عمله الذي تطلّب قُرابة نصف ساعة. طَلَبَ من فاراجي البقاء جالسا على الأريكة كي يُدوِّن بعض الملاحظات في سِجلّه حول عملية التَّراكب الذِّهني، قبل أن يقرَرا مغادرة المختبر قافلين رجوعاً إلى البلدة.

في الطَّريق استغرق كلٌّ منهما في الحديث إلى نفسه شاردَ الذِّهن. لم يتحادثا إلا لماماً. كان الصَّبيّ منشغلاً بمعارفه الجديدة. بدا مغتبطاً لاسترجاع موهبته ولكونها غدت أكثر تنوّعا، إذ وسعه أن يستحضر معلوماتٍ عن اللُّغة والتَّاريخ وغيرهما من المعارف التي استعصت على فهمه طوال سني دراسته المضجرة. غمرهُ ذلك حبوراً شابه بعض القلق لِعلمه أنَّ هذه الهبة لن تدوم طويلاً. اكتفيا بالافتراق عند مشارف البلدة واتفقا على اللِّقاء هنالك ظهيرة الغد.

دَعْوَةٌ خَاصَّة

لَمْ يَهْنَأْ فاراجي بالنَّوم فيما تبقَّى من سويعات تلك اللَّيلة. كان التَّوتر يقضُّ غفواته بكوابيسٍ مزعجةٍ، يصحو إثرها فَزِعَاً ويتحقَّقُ كلَّ مرَةٍ من قدرته على استحضار معارفه الجديدة. خَشِيَ أن يفشل الأمر لسببٍ ما ويغدو في صبيحة اليوم التَّالي أضحوكةَ أترابه مُجدداً، كما أنَّ عَيدَه ستزوره ليستكملا ما بدءاه.

في الصباح الباكر غادرَ فراشه بمشقَّةٍ، وتطلَّع إلى وجهه في المرآة. كانت الكدمة على جبهته قد تناقص حجمها، لكنَّ هالاتِ داكنة حَفَّت عينيه اللتين اكتسى بياضهما بعض الحُمرة. تناول فطوره دون أن يتفوّه بشيء. كان شعره الذي دعكته الوسادة منفوشا وبدا كأنَّه لم يستيقظ بعد. لاحظت العالية علامات الإرهاق بادية على محياه. سألته إن كان قد أجهد نفسه بالمذاكرة طوال الليل فأومأ بالإيجاب.

- للنَّوم وقت وللمذاكرة وقت! لا يمكنك أن تستدركَ كلَّ ما فاتك في ليلة واحدة!

في طريقه إلى المدرسة، اكتشف أنَّ صبيةً من مدارس أخرى كانوا يتحدثون عنه. بدا أنَّ الخبر سرى بين أقرانه كالنَّار في الهشيم، باعتباره الصّبيَ الذي قهر أستاذه. كان الفضوليون يقتربون شراذم من فاراجي ورفاقه، واجتهد بعضهم في التّطلع إلى من يكون هذا العبقريّ الذي يتحدّث عنه الجميع. لم يُخفِ من عرفوه آنفا دهشتهم العارمة، أمّا هو فقد خَفَّفَ الانشغال بالجموع وطأة القلق الذي استحوذ عليه ليلا، وسرعان ما تبدَّدت آخر خيوط قلقه بدخوله الصّفَّ. كان مستعدًّا ليبهرهم مجدَّدا. لم يرَ صديقه رمضان وسمع من أحدهم أنَّه مريض، انشغل باله به للحظة وأزمع أن يزوره في المساء. كانت الحصّة الأولى تخصّ مادَّة الجغرافيا وقد استطاع متابعة الدَّرس بحماسٍ منذ البداية. اكتشف أنَّه لا يعرف ما يطرق سمعه فحسب، بل ويعرف أمورا أكثر أدهشت أستاذه الذي علَّق مأخوذ

اللّب.

- أنت هو التّلميذ الذي يتحدّثون عنه!

لم يكن في وسعه استيعاب الطَّفْرة التي حدثت للصّبيَ. وتكرّر الأمر مع بقيّة الأساتذة، إذ مال أكثرهم إلى الجزم أنَّ أمراً غير اعتيادي يحصل معه.

في فترة استراحة الصّبيحة، عقدت مجموعة من الأساتذة اجتماعا خاصّا بمكتب المدير، الذي لم يقتنع أنَّ أحد تلاميذ مدرسته تفتّقت مواهبه العلمية بين عشية وضحاها، ولم يزده الأمر إلاّ ذهولاً حين رأى فاراجي يقف قبالته فعلّق مبهوتاً،

- يستحيل هذا! فليخبرني أحدكم أنكم استدعيتم الصّبيَ الخطأ!

لكنّهم أكّدوا له غير ذلك. طفقت الكلمات تهرب من فمه، قبل أن ينعقد لسانه دهشة ويلجأ إلى الصّمت المطبق، بعدما شرع فاراجي في الإجابة على أسئلة الأساتذة بدقّة متناهية.

لم يتفوّه المدير بأيّ كلمة طوال الجلسة. اكتفى، بعد أن انفضّ الجمع، بالتّحديق عبر نافذة مكتبه المطلّ على الباحة إلى فاراجي وهو يقفل عائدا إلى صفّه. تساءل إن كان للبهدلة التي عرّضهُ لها مع بداية الأسبوع دخلٌ في هذا التّحول الغامض. تذكّر ما قاله لحظة رفع العلم، وهي اللّحظة التي يستغلها عادةً لإعلان قراراته الهامّة، حيث يقف جُلّ التّلاميذ بمعيّة مُدرّسيهم. حاول حينها أن يحدث أثراً على نفوس المتقاعسين منهم بقوله أنّه سيتم طرد الكثير من التّلاميذ هذه السّنة، بحجّة شُحّ موارد المدرسة. صمتَ لبرهةٍ كي يسترعي انتباهاً أكثر، ثمّ أردف متهكّما،

- لقد تكاثرت الزّواحف الخاملة بشكلٍ كبيرٍ في هذه المدرسة! لا أريدها أن تعدي بتكاسلها من لا يمتلكون مناعةً كافية!

ثمّ ضرب مثالاً بأسماء من القائمة السّوداء لأكثر الرّاسبين شُهرة، ووَرَدَ اسم فارجي على رأسها.

- هؤلاء سيَحالون على الشّارع لا محالة!

قال ذلك بعد أن فرغ من النّظر إلى الورقة بين يديه، ثمّ طواها بعصبيةَ وأعادها إلى جيبه. كانت بدانته المفرطة تمنعه من القراءة مطولاً دون أن تتقطّع أنفاسه. في النّهاية، أكّد هازئاً أنّه قد يتجشّمُ مهمة إعداد جوائز خاصّة لكلّ واحد من هؤلاء في حفل اختتام الموسم الدّراسي. كان يأمل أن قسوة كلامه ستدفع بعضهم إلى الكدّ قليلاً. لم يخطر بباله قطُّ أنّها قد تُحدث أثراً فريداً كالذي عاينه قبل لحظات.

رجع فاراجي إلى الصّفّ مساءً لأنّ استدعاءه لمكتب المدير فوّت عليه فرصة التقاء عَيدَه، كما أنّ صديقه رمضان تغيّب وما من حيلة بيده ليعرف إن كانت قد سألت عنه أم لا. ظلّ منشغل البال حتّى نهاية الفترة الصّباحية. كان يُزمع استباقَ الحشود علّه يظفر بلقاء ملاكه عند المدخل، بيدَ أنّ المدير استدعاه إلى مكتبه مرة أخرى. لم يجد بُدًّا من تلبية الأمر، فتوجّه إلى مقر الإدارة وجعل ينتظر الإذن بالدخول زمناً قبل أن يؤذن له. وجد المدير يقف في مكتبه يقلّب بعض أوراق خزانته وقد ارتسم بطنه العارم تحت قميصه. طلب منه القعود وأخبره أنّه قد تقرّرَ إشراكه ضمن مجموعة تلاميذ ستمثّل المدرسة في المسابقة الولائية.

- لديك يومان كي تعدّ نفسك، مع أنّني لا أفهم كيف...

توقف عن الحديث وقد شردت منه الكلمات للحظة قبل أن يردف،

- حسناً! يمكنك الانصراف...

قال ذلك وهو يشير له بيده كي يغادر. صَعَقَ الخبر فاراجي إلى حدٍّ ما، فخرج من المكتب يفكّر أنّ موهبته الجديدة حملته من انعزاله في الظّلّ إلى الظهور

أمام الملأ. خمّن أنَّ أشخاصا كُثراً سيحضرون مسابقة كهذه، ثمّ توالت الخواطر المزعجة بخلده. «ماذا لو لم ينجح العجوز في ترسيخ المعلومات بذهني؟... منَ الوارد أن يختفي ولا يظهر قبلَ يوم المسابقة... هل يتعيّن عليّ حينها أن افتعلَ المرض وأمكثَ بالبيت؟... ماذا لو كانت عَيدَه بين الحاضرين وراحت تتطلّع لقدومي ثمّ لم أحضر؟!». لم يكن في وسعه لَجمُ سيل الخواطر المقلقة التي داهمته وكان آخر ما استقر عليه رأيه أنَّ عليه رؤية العجوز بأسرع وقتٍ ممكن، ليطلعه على ما جدَّ من أمره.

وجد نفسهُ آخر الخارجين من المدرسة، وراح يحثُّ الخطى نحو البيت. لا وقت لديه كي يضيعه. تناول غذاءه على عجلٍ بمجرد وصوله. لم يحفل كثيراً بحديث العالية التي بدا واضحا أنها تحاول تغيير سلوكها معه، بعد أن استقت بعض أخباره في المدرسة ممّا تَلهَجَ به ألسنة النِّسوة نقلاً عن أبنائهن. لم تكترث لشائعة الجنِّ عند سماعها. كانت على قناعة أنَّ تهوّرها معه أوّل أمس، هو ما أدّى إلى تبدّل حاله. «كان بحاجة إلى صعقةٍ كبيرةٍ كي يتغيّر!» حدَّثت نفسها بذلك وهي تُصغي إلى قصص النِّسوة التي صار الحشو فيها أغرب من أن يصدِّقه العقل، حتّى أنَّ إحداهنَّ ادَّعت أنَّها رأت الجنَّ بأمِّ عينها ليلة البارحة وهو يتلبس بالصّبي، عند حاوية قمامة!

كان الفخر يغمرَ العالية أكثر ممّا يملئوها الغضب حيالَ ما تسمع من تفاهات. لم تُرِدْ أن يظلَّ ابنها مجرّد أخرقٍ آخر في البيت. لذا لم يكن غريباً أن تحاول التّقرب منه حين لاحَ لها بصيصُ أملٍ. لكنَّ فاراجي قطع حبل تودّدها حين تركَ مائدة الغذاء بسرعة، متذرّعا بأنَّه سيذهب ليذاكر مع أصدقاءه. عادَ إلى غرفته حيث غاب للحظاتٍ قبل أن ينزل ويدلف خارجاً من البيت تسبقهُ خُطواته الواسعة.

وصلَ مُبكّرا إلى المكان الذي اتَّفق مع العجوز على الالتقاء عنده، وأخذ ينتظره بصبرٍ نافذ. استبدَّ به الارتياع وقد ساوره الشَّكُ بأنَّه قد لا يحضر أبداً. خمّن أنَّ أمرا كهذا إن حدث فسيؤدي حتماً إلى تبخّر الموهبة التي منحت حياته إشراقاً

باهراً، ولن يقوَ بعدها على العيش كشبحِ الصّبيَ الأبله.

طفق يفكّر في المسابقة التي قرّر المدير إشراكه فيها. كان يعلم أنّها تقام سنوياً وقد سمع بعضَ من شاركوا فيها، يتحدّثون عنها بحماسٍ فيّاض، حتّى أنّهم يمعنون في سردِ أدقّ تفاصيلها نزولاً عند رغبة من يتحرّقون شوقا لحضورها دون أن يكون لديهم أملٌ بذلك. من بين ما عَلِقَ بذاكرته من حديثهم، أنَّ فرق مدارس الولاية برمّتها تتناوب على الصّعود إلى ما يشبه منصّةً كبيرةً داخل قاعة فسيحة الأرجاء، تراصّت وسطها كراسي زرقاء بالكاد تستوعب الجموع الغفيرة، وأنَّ الجو التّنافسي الشرسَ كان يجعل من أعضاء الفرَقِ الفائزة أبطالاً في نظر أترابهم. لم يصدّق أنّه سيعتلي تلك المنصّة التي طالما سمع عن رهبتها، وأنَّ في وسعه أن يغدو بطلاً يغبطهُ الجميع. فجأةً سمع حركةً خلف ظهره فانتفضَ واثباً من مكانه. كان العجوزُ قد حضر أخيراً على متن دراجته.

الـمَوْعِدُ والرِّسَالَة

في طريقهما، قَصّ فاراجي بقلقٍ ما حدث معه صبيحة اليوم. لم يكتم خشيتهُ من حدوث طارئٍ يجعله يفتقد موهبته يوم المسابقة، لكنّ العجوز بدا شارد الذّهن واكتفى بالقول كلّما سَكَتَ الصّبيّ منتظراً رَدَّهُ،

- سنجد حلاً...

ثم يعاود الاستغراق في سُهومه. كانت آثار الإرهاق باديةً على سحنته الشّاحبة. خمّن الصّبيّ أنّه لم ينمْ منذ فترة، فكفَّ عن مضايقته بالحديث حتّى وصلا إلى المختبر. وضعَ العجوزُ الخوذة على رأسِه بعد أن أشار عليه باقتعاد الأريكة دون أن يربط إليها معصميه.

- لا حاجةَ للأربطة... سأجري فحصاً فحسب.

قال ذلك بصوت جافٍّ، قبل أن يلجأ إلى حاسوبه ويضغط بعض الأزرار. ظهرت صورة تخطيطية لدماغ الصّبيّ تتوهَّجَ خلالها العُقَدُ الوامضة. أنشأ يشتغل على لوح المفاتيح دون أن يرفع بصره عن الشّاشة واستغرق على هذا الحال زمناً. ظلَّ فاراجي يراقبه إلى أن دَبّ النّعاس إلى عينيه وأخذ جفناه يرتخيان، قبل أن يَغُطَّ في النّوم تحت وطأة الإعياء.

رأى نفسه يقف على منصّة القاعة الفسيحة. كانت الجماهير تقف مصفِّقة له لسببٍ ما، بينما راح هو يبتسم ويلتفت نحو أعضاء فريقه الذين رفع بعضهم إبهامهُ إشارةً إلى تشجيعه. غمره إحساسٌ بالحبور، قبل أن يشعر بوخزة ألمٍ في صدره. تذكّر عَيدَه. تطلّع إلى الوجوه أمامه. كانت عديمة الملامح، إلى حدٍّ أثار ارتياعه. عاود النّظر إلى أعضاء فريقه. كانوا جميعا يحملون وجه صديقه رمضان.

اعترته رعشة غريبة ورغب في الابتعاد عن المنصّة، لكنه لم يقوَ على الحركة. أصبحت الوجوه تنظرَ إليه نظرةً خاليةً من أيِّ تعبير، ثم وثب عليه رفاقه يكبلون بأذرعهم يديه وقدميه. استفاق من غفوته مذعوراً. كان العجوز يربط بلطف معصميه إلى الأريكة، ولم يَخْفَ عليه ارتعاب الصّبيّ في نومه، فقال بصوت هادئ،

- سنُجري الشَّحن من جديد.

أجريا عملية الشَّحن المعلوماتيّ في غضون دقائق، ثم قفلا عائدين إلى البلدة في صمت.

كانت شمس الأصيل قد شرعتَ تميل إلى الغروب، حين راح فاراجي يتلكّأ في سيره نحو المنزل، عابرا أزقّة الأحياء المتاخمة لحيه بتثاقل. عاد بذهنه إلى الحلم الذي راوده وهو على الأريكة، وخطر بباله رمضان. أقرّ أنّه كاد ينسى زيارة أعزّ أصدقاءه. تساءل أيضا لمَ يبحث دوما عن عَيدَه في كوابيسه ولا يعثر عليها؟. امتقع لونه ثمّ وقف واجماً كالصّخر. تذكّر أنّه وعدها أن يلتقيا ظهيرة اليوم. كيف استطاع أن ينسى ذلك وهو يفكّر فيها طوال الوقت. انطلق يركض إلى البيت. جال بخلده ما سمعه ذات يوم بشأن عزوفها عن مصادقة الصّبية، لقناعتها أنّهم لا يحترمون متطلّبات الصّداقة، وأنَّ جُلّهم متعجرفون. أمل أن لا تكون قد فهمت غيابه على هذا النّحو. شعر بضيق ينتابه وهو على بعد خطوات من المنزل، ففتح الباب بفتور، ودخل يجوب أرجاءه، لكأنّه يترقّب أن يجدها في مكان ما تنتظره. سمع وقعَ أقدام أمّه في الطّابق العلويّ. تسارع وجيبُ قلبه وفكّر أن يصعد إلى غرفته، لكنّه لم يحرك ساكنا. ظلَّ تائهَ اللُّب، حتّى ظهرت العالية وأنشأت تنزل السّلالم. ابتدرته بالكلام قائلة،

- ها أنت ذا! منَ الجيد أنّك حضرت، فقد أعددت بعض المرطّبات!

قالت ذلك واتجهت صوب المطبخ وكأنّها تنتظر منه أن يلحقها، غير أنّه بقي متسمّرا عند الدَّرج. حدَّقت إليه باستغراب أناب عنه صعود أحد حاجبيها.

- ما بك؟

غَصّت الكلمات في حلقه. ابتلع ريقه مرتين، قبل أن يَندَّ عنه السّؤال.

- هل جاءت عَيدَه؟

رمقته بنظرات مبهمة وكأنَّها لا تعرف عمّ يتحدَّث. منحه ذلك أملاً في أنَّ فتاته لم تأتِ لسببٍ ما، لكنَّ العالية استدركت وهي تهزّ رأسها،

- آه! تلك الصّبية الحلوة... بنت المرابطين.

ارتجّ قلبه بين جوانحه، بينما دلفت هي إلى المطبخ دون أن ينقطع كلامها.

- كانت هنا!... أخبرتها أنَّك ذهبت لتذاكر مع أصدقاءك، لكنَّها غريبة الأطوار!... ظلّت تنتظرك عند عتبة المدخل قرابة السّاعة، قبل أن تقتنع بكلامي وترحل... أليست فتاة غريبة ؟!

قالت ذلك وانتظرت ردَّه لبرهة من الزّمن، لكنّها لم تسمع سوى باب المدخل يُصفقُ بقوّة. استطلعت الأمر ولم تفهم كيف تأتّى له الخروج دون أن يكلّفَ نفسه عناء الردِ عليها.

غَدَا فاراجي عابرا أزقَّة الحيَ وقد اعتمل بصدره ألم ممضّ. رغب في أن يرى عَيدَه بأيّ ثمنٍ ويعتذر لها، لكنّه لم يكن يعرف منزلها. قصد ثلاثة من رفقائه الجدد يسألهم عنه، وقال آخرهم بابتسامة عريضة،

- أعرفه!

ثم شرع يقوده إليه. كانا يحثّان الخطى وقد حاول مرافقه أن يفهم منه سبب تعجّله لكنّه لم يُجب. بعد دقائق وقفا وأشار الدَّليل بأصبعه إلى أحد المنازل.

- هذا هو! ولكني لن أقترب منه... لا أحب رؤية والدها!

قال ذلك وأوسع ما بين ساقيه كي يدحضَ أيّ محاولة لإقناعه بالاقتراب أكثر، لكنّ فاراجي اتَّجهَ رأساً نحو الباب الحديديّ ذو اللون البنيّ. شعر بانقباض قلبه، ولم يكن ذلك كافياً كي يجعله يعود أدراجه. طرق الباب مرّتين قبل أن يفتح رجلٌ كهلٌ ذو شاربين عريضين وهو يرتدي سروالاً فضفاضاً وقميصاً داخلياً دون أذرع. نظر إليه وسأل بنبرة فجّة.

- عمّ تبحث؟

تلكّأ فاراجي واعترته نوبة تأتأة وهو يحاول إخباره أنَّه كان على موعد مع عَيده ليذاكرا دروسهما سويّة، لكنه تأخَّر لسببٍ مهم.

- أنت إذن!

قالها الرّجل بعدائيّة مفرطة، قبل أن يختفي للحظات خلف الباب. لم يدرك الصّبيَ ما يتعين عليه فعله، لكنّه استوعب خطورة موقفه أخيراً حين عاد الرّجل حاملاً في يده قطعة من خرطوم مياه. كان وجهه المتجهّم كافياً كي يدفع فاراجي للوثوب خطواتٍ إلى الوراء، قبل أن يستدير ويهرول صوب رفيقه الذي انفتل يعدو بعيداً دون أن يلوي على شيء.

- أجدك هنا مرّةً أخرى وسأسلخ جلدك الأسود عن جسدك أيّها الزنجيٌ القذر!

طفق سيل السّباب ينهمر من فم الرّجل، فيصمّ مسامع فاراجي الذي انطلق يركض في هلعٍ، واجتهد في إعمال ساقيه زمناً عبر الشّوارع حتّى وهنت أوصاله وتوقَّف أخيراً.

وجدَ نفسه يقف وحيداً عند سوق الماشية بأحدِ أطراف البلدة، وقد أنهكتهُ

المغامرة فقرفصَ يستردّ أنفاسه. كان الظّلام قد شرع يمدّ رداءه، وجمع أغلبَ الباعة مواشيهم. لم يرغب بالعودة إلى البيت. فكّر أنّ العالية ستكون قد ناولت خاله حبات المنوم كي يلجأ إلى نومٍ ثقيلٍ، وخرجت لتقوم بأشغال البيت في أحد المنازل، أين تتكفّلُ بطهي العشاء وغسل الملابس مقابل بقشيش يسير. كانت تفعل ذلك أمسية كلّ خميس. تذكّر أنّه لن يرَ عَيدَه قبل نهاية عطلة الأسبوع. شعر أنّ من الضّروري عليه أن يلتقيها ويعتذر لما بدرَ منه قبل مرور وقتٍ طويلٍ يفقد معه اعتذاره فحواه، لكنّه لم يهتد إلى وسيلة تتيح له ذلك، مستبعدا بشكل قطعي أن يعود لزيارة منزل والدها مجدّدا. لم يكن ذلك المرابط المجنون ليتوانى لحظةً واحدةً في إيساعه ضرباً. ظلّ يفكّر في مخرجٍ لمعضلته، غير أنّ سعيه الدؤوب ما كان ليَسفرَ عن شيء ذي بال وهو مضطرب الفكر.

تأمّل خرافاً صغيرةً تجمّعت غير بعيدٍ بمحاذاة أحد الأسوجة. كانت تنطُ لاهيةً وبدت سعيدةً برفقة شابّ جعل يستخرج من جيب عباءته شيئاً ويلقي به إليها. فكّر أنّه لو تمّ طرده من المدرسة لما وجد بأسا في أن يكون راعياً، يقضي أيامه في ملاعبة خرافه والاعتناء بها. لكنّه لم يُطرد بعد، بل إن ما حدث معه لم يتوقّعه أحد، فقد تحوّل من صبيّ يسخر منه الجميع إلى تلميذ يبهرهم بنبوغه المفاجئ. كانت رحلة هروبه قد غيّرت حياته بشكل عميق، لكنّ أجمل ما حمله هذا التغيير هو عَيدَه، حتى أنّه لم يعد للتفكير بالهروب وقد تصادقا. أمّا وقد غضبت منه فإنّ كلّ شيء غدا عديم القيمة في نظره. انتابه شعورٌ أنّ لحظات السّعادة التي عاشها في اليومين الفارطين تنحسرَ عنه تاركةً وراءها خواءَ رهيباً.

تناهى إلى سمعه ثغاءَ آخرِ الخراف وسط الظّلام فوقف مغادراً. كان لا يزال يعزف عن الأوبة إلى البيت، مع أنّه لا يعرف إلى أين سيذهب. بدا له كُلُّ شيء موحشا طالما أنّه لم يصالح فتاته. لعلّها اعتبرت عدم مجيئه إهانةً لها. كيف له إقناعها أنّه لم يكن يذاكر مع زميل آخر. ربما انشغل بَالُهُ لبعض الوقت حين ساوره الشّكّ بأنّه فَقَدَ موهبته إلى الأبد، لكنّ طيفها لم يفارقه طَرفَةَ عين. موهبته ذاتها لم تعد تعني له شيئاً سوى أن يسعدَ بصحبتها. خمّن للحظة أنّه لو وسعه أن

يُطلع أحداً على سبب غيابه، لكانت أوّل شخص يبوح له بسرّه، ثمّ تصوّر أنّها إن عرفت بذلك فقد تعتقد أنّه مجردُ صبي أبلهِ عبثَ بدماغه عالمٌ مجنونٌ. قد تنظر إليه على أنّه ليس أكثر من دميةِ تمّت تعبئتها لتُردِّد شيئاً ما. شعر بحقدِ غريبٍ حيال العجوز. كان يتخبط في أمواج أحاسيسه المتلاطمة دون أن يستبين سبيلاً للسكينة.

قَادَتهُ قدماه على غير قصدِ منه إلى منزل صديقه رمضان. تذكّر أنّه كان مريضا. لا يعلم كيف نسي أمرَه في غمرة الأحداث، وانتابه شعورٌ لاذع بالذّنب لانشغاله عن زيارته. قطعَ الشارع العريض في تؤدة، وتقدّم نحو الباب ثمّ طرقه بلطف. انتظر للحظات حتّى خرجت والدة صديقه. بدت مستغربةً لهذه الزِّيارة المتأخِّرة لكنّها دعتهُ للدخول وهناك أخبرته أنَّ ابنها دهستهُ سيارةُ أحد الجيران حين كان يختبئ تحتها وحيداً، وقد أصيب بجروحٍ بليغةٍ. أضافت أنّه ظلَّ يسألُ عنه في عيادة البلدة طوالَ اليومِ، لكنَّ الطَّبيب أمر بنقله إلى مستشفى الولاية فورَ قدوم سيارةِ الإسعافِ.

- نقلوه في المساء... لكنّه ترك لك رسالة!

قالت ذلك ثمّ وقفت لتجلب له ظرفاً بريدياً لوزيّ اللّون، استلمه فاراجي بوجهِ شاحبٍ وغادر على الفور دون أن يتفوه بكلمة.

حَادِثَةُ اللِّصّ

كان الوقتُ متأخِّراً حين انتهى المطافُ بفاراجي إلى البيت. تشبّطَ الجدار وصولاً إلى غرفته تلافياً للقاء العالية. لم يكن في مزاجٍ يسمح له بسماعِ تقريعها له. ما إن وطأتْ قدماهُ أرضيَة الغرفة حتّى لمح شبحها يَقبعُ على سريره. كانت تنتظره هناك وسط الظّلام.

- تأخَّرتَ كثيراً؟

قالت ذلك بجفافٍ لم يستشفَّ منه إن كانت حانقةً عليه أم متعبة. لم يحر جواباً، ولكنّه تقدَّم نحو زرّ الإنارة وأضاءَ الغرفة. بَدتْ ملامحُ وجهها خاليةً من أيّ عاطفة، بينما تعلقت عيناها بالرسالة بين يديه. لاحظَ أنَّها قد غطّت صينيةَ العشاء بمنديلٍ على مقربة من سريره. لا بدَّ أنَّها مكثتْ ترقَّبهُ مدَّةً طويلةً. لم يدرِ ما يتعين عليه قوله، غير أنَّها رمقتهُ بنظرةٍ خاطفة، ثمّ كَفَتهُ عناءَ التّفكير في حُجّة يختلقها بعد أن قامت وخرجت من الغرفة مُوصدةً خلفها البابَ وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

راحت تنزلُ الدَّرج وقد ارتسمت صورة الرسالة في ذهنها. كانت تعرف تلك النّظرة في عينيه. كيف لا وقد خَبرتْ خواءَها الرَهيبَ وكأنَّها تُطلُّ من نافذةٍ على عالمٍ لم يره أحد. أيقنتْ بشكلٍ ما أنَّ ابنها وقعَ في إسارِ تلك الصَّبيَة الفاتنة، وشعرتْ بعاطفة غريبة حياله. غمغمت تحدّثُ نفسها،

- لازلتَ صغيراً جدَّاً على...

علقت كلمة «العشق» على طرف لسانها ولم تقوَ على التّلفُّظ بها. دَغْدَغَ ذلك جراح قلبها التي لم تلتئم بعد كلّ هذا العمر. ارتسمَ في مخيلتها وجهُ الرّجل الذي

عشقته بجنونٍ وقرّرت الفرارَ معه بعيداً عن البلدة، ليهجُرها في النّهاية ويختفي دون سببٍ وجيه. تركَ لها رسالةً من بضعة أسطر، يعتذر فيها عن فعلته فحسب. عادت بها الذّكرى سنيناً ظلّتْ تطمر خلالها ما حدث في أعماق عذاباتها السّحيقة. لم تعتقد أنَّ رؤية الرّسالة في يدِ ابنها ستهيج ألمها الدّفين إلى هذا الحدِّ.

بَقيتْ منزويةً في المطبخ زمناً طويلاً، تعتصرَ ذاكرتَها دموعٌ لافحةٌ من مقلتيها. كانت عيناها السّاهمتان تشيان بأنَّها تغوصُ في ماضٍ بلا قاعٍ. لم تعَ كم مضى من الوقت وهي على هذا الحال، ولكنّها قرّرت العودة لغرفة ابنها كي تجلب صينيّة عشاءه. في طريقها توقفت لبرهةٍ عند المرآة المعلّقة قُبالةَ الدَّرج. هالها منظرَ وجهها وقد تغضَّنَ بأخاديدِ عميقةٍ. أشاحت برأسها وواصلت صعود السّلالم بخطىً واسعةٍ لكأنّما تهرب مما رأت.

فتحت باب الغرفة بهدوء ودخلت. وجدت فاراجي مستلقياً على فراشه وقد أغفى بحذائه. بدا أنَّه تناول شيئاً يسيراً من الطَّعام. كان ينام والرسالة بين يديه دون أن يفتحها، فاستلَّتها من بين أصابعه بلطف ووضعتها فوق رفِّ كُتبه. لاحظت أنَّ وسادته كانت مبتلّةً قليلاً ولم يخفَ عنها أنَّها كانت دموعه. لطالما سهرت اللّيل باكيةً وحيدةً. كان بالنّسبة لها صغيراً على شجو العشق، لكنّه ابنها وحَرِيٌ به أن يحمل بعض خصالها لولا أنَّه اختار أكثرها إيلاماً. أغلقت النّافذة ثمّ حملت الصينيّة وغادرت، لكنّ ها لم تذهب بعيدا. اقتعدت إحدى سلالم الدَّرج، ثمّ غاصت مجدَّداً في أشجان ماضيها. تذكَّرَتْ مرارةَ شظفِ العيشِ الذي عانته وهي تنوءَ بحمل العناية برضيعها، لولا أن هبّ أخوها المحفوظ ففتح لها داره وآزرها حينما تنكَّرَ لها الجميع. وجدتْ فيه العطف الذي افتقدته، لكنَّ حظَّها التّعيس حرمها منه منذ فترة. كانت أياد حقودة قد عبثت بمكابح سيّارة المحفوظ ولم يتفطَّن للأمر إلاَّ وهو يُعملُ قدمه عبثاً عند تقاطع طريق البلدة بالطَّريق المعبّد.

راحت تستعيدُ في مخيلتها صورته مضرّجا بالدّماء وهو ملقى كالخرقة الباليةِ على سريرٍ في أقرب المستشفيات إلى البلدة، حين انتبهت فجأة إلى صوتِ نقرةِ حادَّةٍ تقطع سكون اللّيل. أرهفت السّمع وهي تهبّ واقفةً كي تستقصي الأمر.

سادَ السّكون لبرهة، ثمّ سمعت نقرةً أخرى. بدا لها أنَّ الصّوتَ يصدرُ من غرفة ابنها. انتابها إحساس بالرّهبة. وضعت الصِّينيَة عند فسحة الدَّرج وتسلَّلت إلى الغرفة بتؤدة. كانت مظلمةً، لكنَّ أعمدة الإنارة العمومية تُلقي بضوئها الباهت. راحت تتأكَّد أنَّ ابنها لا يزالُ يغطُّ في النّوم، ثم أجفلتْ مُرتعبةً حين اصطدم شيء ما بالنّافذة. استجمعت رباطة جأشها بمشقَّة واقتربت حتّى وسعها أن تنظر عبر الزّجاج. كان هنالك في الأسفل شبحُ شخصٍ يقف في الظّلام محدِّقاً إليها مباشرةً. اهتبلها الرّوعُ وركضتْ إلى خارج الغرفة في فزعٍ، مُحاولةً النّزولَ بأسرع ما تستطيع فارتطمت قدمها بالصِّينيَة واندلق ما فيها على السّلالم. كادت تسقطُ لولا أن تمسكت بدرابزين الدَّرج. أنارت كُلَّ المصابيح في طريقها وهي تصيحُ،

- لصّ!.. لصّ!

أحدثت جلبةً عارمةً جعلت بعض الأنوار تضيء في المنازل المجاورة، وسرعان ما احتشد بعض الرّجال في السّاحة الصّغيرة المقابلة لغرفة الصّبي. لم يكن هناك أيّ أثر للشَّبح، وكان فاراجي لا يزال نائماً في غرفته دون أن يشعر بشيء.

في صبيحة اليوم التّالي، وقفَ فاراجي مستغرباً عند مائدة الفطور وقد تناهى إليه صوت العالية من القبو قائلةً أنَّ عليه سحب الخبز من الفرن قبل أن يحترق. فعل ذلك ثم اقتعد كرسيًا وأخذ يزدرد رغيفه، متسائلاً عمّا قد تبحث عنه داخل القبو الذي لا إنارة فيه. أثارت الضَّجة التي أحدثتها فضوله، فهرع يستطلع الأمرَ. رآها تصعد وفي يدها مجموعةٌ من القضبان الحديديّة الصدئة. كانت منفوشة الشَّعر وقد علاها الغبار. قالت بنبرة حاسمة،

- تناول فطورك لتأخذ هذه القضبان إلى اللّحّام. يجب أن نصنع سياجا لنافذة غرفتك... حاول لصّ أن يتسلّل منها ليلة أمس!

تذكَّرَ العجوز فتيبّسَ الدَّمُ في عروقه. لم تدعِ التّفاصيل التي أوردتها أمّه لاحقاً مجالاً للشَّك في تخمينه وفكَّر أنَّ الرّجلَ أعياهُ الانتظار عند طريق الحقول فأقدمَ

على تجشُّم المخاطرة بالمجيء وافتُضحَ أمره.

حملَ القضبان الثَّقيلة على دفعاتٍ إلى لحّام الحيّ، الذي طفق يتبرَّمُ من اضطراره إلى العمل في يوم الجمعة. اكتشفَ أثناء مكوثه منتظراً صُنع السّياج أنَّ الجميع يحيطون علماً بأمر اللّص. أصرَّ اللّحّام، وهو رجلٌ يبرعُ في الثَّرثرة والتّندّر بشكلٍ لافتٍ، أن اللّص بحاجةٍ إلى إعادة التَّربية كي يُتقنَ اللّصوصيّة على أصولها.

- ... وإلاَّ كيف يمكن تفسير اختياره الأخرق لهذا المنزل؟! ماذا كان سيسرق منهم؟... البراغيث؟!

قال ذلك لمساعده، غير عابئٍ بالصّبيّ الذي يقف إلى جواره، ثمّ انخرط في موجةِ ضحكٍ يصاحبها شخيرٌ مزعجٌ، قبل أن يُسهبَ في الحديث عن ضرورة التزامِ ضوابطِ المهنة أيّاً كان نوعها.

فكَّر فاراجي أنَّ استغراقه في النّوم هو سبب ما حدث. لم يُطقْ مدافعةَ إعياء السّهرِ لأيّامٍ متوالية. عاودهُ التّفكير بعَيدَه وهو يسمعُ قولَ اللّحّامِ أنَّ السّياجَ قد انتهى، فحاولَ حملهُ مُتعجَلاً واحترقت أصابعه. استغربَ الرّجلُ من رعونته وتبرع بحملِ السّياج نيابةً عنه، مستفيضاً في طريقه بالتّحدُّث عن ضرورة توخّي الحذر في كُلِّ شيء. كانت كثرةُ كلامه في كلِّ ما جرى وما سيجري قد أكسبتهُ سُمعته المعروفة كثرثارٍ من طرازٍ نادرٍ جدّاً. بدا وكأنَّه لا يعيرُ شرود ذهن الصّبيّ أيّ انتباه.

حين دلفَ باب البيت لاحظَ فاراجي تكيّس مكان الحرق في يده، فهرع إلى العالية التي أنشأت توبّخه وهي تكسر بيضةً وتدهن أصابعه ببياضها، قبل أن تضمّدها بخرقة كتّان.

- كان عليك أن تساعدني، وها أنت تفسدُ الأمرَ ببلاهتك!

اعتبرَ إعذارهُ من المساعدة فرصةً ينتهزها كي يذهب للقاء العجوز. فكَّر أنَّ المسافة طويلة، بيدَ أنَّ أمامه اليوم بطوله. سار عبر طريق الحقول المختصر

واستغرق الصّبيحة وشطراً من الظّهيرة حتى بدأت تتراءى له التّلال الصّخريّة. عَنّ له أن يُعرِج على الأبنية الطّينيَة المهجورة فيَمّمَ شَطرها. كان منظرها المتراكم يثير فضوله. وصل إلى اليافطة التي طرقها أوّل ليلة وقرأ عليها كلمة «تماسخت» مكتوبةً بخطٍّ رديء. لم يفهم معنى الكلمة ولم يُعرها كبير اهتمام. واصل طريقه نحو التّلال. وجدَ العجوز مستغرقاً في قيلولته، لكنّه انتبه لحركته فاستيقظ متوفزاً، قبل أن يهدأ روعه ويبتدرَ إلى الكلامِ مؤنّباً يعلو سحنته امتعاضٌ واضحٌ،

- أين كنت ليلة البارحة؟ كِدتُ انكشف!

قال ذلك بنبرةٍ محتدّةٍ قبل أن يلاحظَ يدَ الصّبيّ ويردف،

- ما بالُ يدك؟ تبدو كمُحاربٍ مع كلِّ هذه الخدوش والضّمادات!

قال ذلك وقد هدأ اغتياظه قليلا، قبل أن يمنح فاراجي بعض الماء ويُشركهُ في تناول غذاءه المكوّن من بعض السّمك المعلّب قام بخلطه مع خبزٍ يابسٍ مُهشّمٍ. سرد الصّبيّ ما حدث معه منذ افترقا، فلم يصدر عن الرّجل سوى تعليق واحد.

- كادَ عشقك يُسيلُ على ظهرك دماً من خرطوم مياه، ولكنّه احترق بين يديك صباحاً!

قال ذلك ضاحكاً ونهض ليَعدَّ أريكة آلته كي يَقيسَ مدى اضمحلالِ المعلوماتِ من ذهن الصّبيّ.

قُبيلَ غروبَ الشّمس بزمنٍ يسيرٍ، كان فاراجي يمشي وحيداً عبر أزقّة البلدة عائداً إلى البيت. تذّكرَ رسالة صديقه رمضان واعتزم أن يقرأها حالما يصل. لم يفارق خياله طيفُ عيده واستثقل مُضيّ ما تبقّى من الوقت كي يتمكّن من رؤيتها صبيحةَ الغد. فكّر فيما عساه يسوقُ لها من أعذارٍ كي يُبرّرَ إهمال موعدهما، ثمّ إلتمعَ بذهنه حلٌّ يعفيه من مغبّة مواجهتها مُتَلكّأً في الحديث.

- سأكتبَ لها رسالة!

لم يكتب رسالة لأحدٍ فيما مضى، لكنّ رسالة صديقه أوحتْ له بذلك. فكّر

فيما عساه يكتب لها. لا يسعهُ إخبارها بمغامرته مع العجوز. كان عليه أن يختلق عُذراً ملائماً.

وصلَ إلى المنزل ورأى أنَّ والدته قد أحكمت وضعَ سياجِ القُضبانِ على الواجهة الأماميةِ لنافذته. لم يكن في البيت سوى خاله يهزّ ظهرهُ وحيداً. خمّن أنَّ العالية خرجت لقضاء بعض الحاجيات فصعد إلى غرفته. أخذَ كُراسةً وقلماً، ثمّ تمدّد على سريره. كانت تعتريه رغبةٌ جامحةٌ في الكتابة يُخالطها توتّر مُربكٌ نَجَمَ عن عجزه في أيجاد كلماتِ ملائمة يفتتح بها رسالته. لم تكن تعوزه المفردات، فقد أثبتت مواهبه الجديدة جدواها في تزويده بتعابيرَ رائقة، لكنّه كان بحاجة إلى حبلٍ يربطُ كلماته. شردَ ببصره نحو رسالة صديقه الموضوعة فوق كتبه على الرّف الخشبيَ. تفتّق ذهنه عن فكرةِ لامعةِ وراح يكتب بخطٍّ ركيكِ مُتألّماً بسبب حروقِ أصابعه.

«صديقتي العزيزة، أعرف أنك غاضبة مني لأنني لم انتظرك في البيت كما اتفقنا. ربما أخبرتك والدتي أنني ذهبت للمذاكرة مع أصدقاء آخرين، لكن ما حدث سوء فهم فحسب. لم أذاكر مع أحد. كان علي أن أزور صديقي رمضان. ربما سمعت عن الحادث الذي أصابه. لطالما كان صديقي الوحيد، وقد قررت زيارته في العيادة بشكل خاطف تلك الظهيرة، ثم أعود لألتقيك. لكن الأمر لم يسر كما أردت. كان رمضان يشعر بوحدة شديدة بعدما علم أنهم سينقلونه إلى المستشفى. طلب مني البقاء برفقته مدة أطول ولم أجد بدا من فعل ذلك. اعتقدت أنك ستتفهمين الأمر وتعذرينني حين تعرفين ما حصل بالضبط. لذلك كتبت لك هذه الرسالة. لم أكن لأخلف موعدي معك لولا ذلك. أرجو أن تتقبلي عذري.»

توقّفَ عن الكتابة وقد شعرَ أنَّه أفضى بما لديه. بحثَ بين أغراضه عن ظرف بريديَ فلم يجد سوى رسالة صديقه. أخرج الورقةَ منها ووضعها بين طيّات أحدِ كُتبه، ثمَّ أدخلَ رسالته في الظَّرف وأغلقه بإحكام. شطبَ بعنايةِ عبارة «إلى صديقي فاراجي» المكتوبة على ظهرِ الظَّرف وكتب تحتها «إلى عيده».

الطَّائِرُ الزُّجَاجِيّ

في الصّبيحة كان فاراجي يحملُ رسالته إلى المدرسة بكثيرٍ من الأمل. ظلَّ ينتظرَ بصبرٍ نافذ رنينَ الجرسِ معلناً عن فترة الاستراحة. ما إن سمعه حتّى كان أوّل الخارجين إلى الباحة وطفقَ يذرعها بحثاً عن عَيدَه. لم يتح له تقافز الصّبية رؤيتها بيسر، بيدَ أنَّه لمحها أخيراً رفقة زميلاتها وهُنَّ يجلسن في ظلِّ إحدى الشُّجيرات. خطا صوبها خطوتين ثمّ أحجم عن المضيّ قدماً. خشيَ أن ترفض استلام الرّسالة من يده. سيؤلمه ذلك بشكلٍ لا يحتمله.

- - تبحث عن عَيدَه؟

قطعَ عليه وجومه صوتُ إحدى زميلاتها وهي تمرّ بقربه، فاستوقفها ورجاها أن تأخذ إليها رسالته فوافقت. شعر بالحظِّ يقف إلى جانبه واعتراه بعض الارتياح. جعل يرقب ما سيحدث. رآها تستلم الرّسالة ثمّ ترمقه بنظرةٍ خاطفةٍ لم يتبيّن إن كانت تحملُ غضباً تجاهه. ظلَّ واقفاً في مكانه يشاهدها تقرأ. كان يبحثُ في عينيها عن الإعجاب، محاولاً اعتصار حظِّه لاستدرار آخر قطرات الأمل. تيبّس الرّيق بحلقه وهو يراها تهمس بشيء إلى صديقاتها قبل أن تريهم الرّسالة فيطلقن ضحكاتٍ ماجنةٍ وهنّ ينظرن إليه. شعرَ بالدَّم يغلي في عروقه وأحسّ بوخزة ألمٍ تنتابه، قبل أن تقف عيده من مكانها وتتّجه صوبه. وقفت على بعد خطوةٍ منه.

- ذهبتَ لتزور صديقك إذن. يبدو أنَّك لست مغروراً ومُخلفاً للوعود فحسب، بل أنت كاذبٌ ومغفَّل أيضا! كان ينبغي أن تعرف بزيارة زملاءك لصديقك في العيادة. عندما انتظرتك طويلاً، اعتقدت أنَّك قد ذهبت معهم فرَحتُ أسأل عنكَ هناك. كان المسكين سعيداً بالتفاف الجميع حوله، لكنَّ عيناه ذرفتا دموعاً وهو يقول «أين فاراجي؟».. كنتَ الوحيدَ الذي سأل عنه والوحيدَ الذي لم يحضر... أيها المغرورُ الكاذب!

قالت ذلك دفعةً واحدةً ثمّ مزّقت الرّسالة وقذفتها في وجهه، قبل أن تدبر عائدةً إلى صديقاتها اللّواتي واصلن ضحكاتهنّ الهازئة. نظر إليهنّ بعينيه الذّاهلتين وغاصَ في صمتٍ مطبقٍ. كان على يقينٍ وهو يراها تغادر أنّ كذبتهُ قد أحدثت صدعاً يستعصى رَأبُه. شعرَ بالإحساس ذاته الذي يمكن أن يخامره وهو يقفز في الماء عارياً في ليلة قارصة البرودة. سرت قطرات الدّم البارد في عروقه ثمّ اعترى أوصاله وهنٌ ثقيلٌ سرعان ما استحال ألماً موجعاً يخترق صدره. خنقَ عيونه بكاءٌ أخرسَ وتسمّر في مكانه، يَشي تَصلُّبَ عروقه النّافرة أنّه مُستعدٌ لفعل أيّ شيء نظيرَ أن تغفر له زلّته، لكنّه لم يحرك ساكناً.

لم يعِ كيف رجعَ إلى الفصل لاحقاً ولم يقطع عليه شجون ألمه، وهو يجلس وحيداً إلى طاولته في الصّف الخلفيّ، سوى مبعوث الإدارة الذي طرق الباب مُنبئاً باستدعائه إلى مكتب المدير على جناحِ السّرعة. رافقَ المبعوث شاردَ الذّهن حتّى وصلا إلى مقرّ الإدارة، أين وجدَ نفسه ضمن ثُلّة من التّلاميذ وسط قاعة الاجتماعات. أخبرهم المدير بنبرته الآمرة أنّ عليهم أن يبقوا بعد الدّوام في المدرسة كي يحضروا جلسةً إعداديّةً للمسابقة التي سيسافرون بعد الظّهيرة إلى عاصمة الولاية بُغية المشاركة فيها.

- لقد أعددنا لكم الغذاء هنا. ليس عليكم أن تقلقوا لأيّ سبب كان. ستُمثّلون المدرسة برمّتها وآمل أن تفعلوا ذلك بشكل مشَرف!

قال ذلك بحسمٍ وأجالَ بصرهُ في الصّبية الذين اكتست ملامحَ وجوههم تعابير متباينة، ثمّ استقر نظره على فاراجي وأردف،

- ستقلّكم حافلةٌ خاصّةٌ وسنلتحق بكم رفقة نخبة من الأساتذة والتّلاميذ. اطمئنوا! سيكون كلُّ شيء على ما يرام.

قال ذلك وأومأ إلى سكرتيره بفضّ الاجتماع مُغادرا، لكنّه نَكَصَ عن الخروج وقد تذّكر شيئا.

- سيكون هناك جمعٌ غفيرٌ وبعض السّلطات... يجبَ أن تُشرّفوا المدرسة!

قال ذلك متلفظا بكلمة «يجب» في صرامةٍ زائدةٍ، ثمّ همّ بالمضيِ. بيدَ أنّه توقَّف مرّة أخرى وأضاف،

- آه! لقد أرسلت دعواتٍ إلى أوليائكم، سيكونون هناك لدعمكم... سنتكفَّل بنقلهم أيضاً.

قال ذلك ورسمَ على وجهه ابتسامةً بلهاء لم يستوعب الصّبية فحواها، غير أنّهم عرفوا من خلال حركة أصابعه التي لا تهدأ أنّه قال كلَّ ما عنده.

تسارعت وتيرةُ أحداثِ الظّهيرةِ، وسط الحماس الدَّؤوب للأستاذ المشرف على إعداد فريق المدرسة، بشكلٍ جعلَ فاراجي يحسّ بالتّشاغل قليلاً عن مرارة الألم العميق الذي خلّفته حادثة الصّبيحة. لم ينفكّ المشرفُ يجترّ نصائحه حتّى بعد أن استقلّوا الحافلة وأقلعت بهم.

سرحَ فاراجي ببصره عبر نافذة الحافلة أثناء سيرها. عاوده الألم بشكلٍ ممضٍّ وشعر بالازدراء حيال نفسه.كان الوجعُ يطلُّ من عينيه.لم يتوقَّع أبداً أن ينتهي به الأمر كشخصٍ حقيرٍ.

وصلوا بعد ساعةٍ من السّير إلى مركز الولاية وتوجّهت بهم الحافلة نحو ساحةٍ ممتدَّة الأرجاء، لها أقواسٌ اسمنتيّةٌ هائلةٌ ذات لونٍ أحمرٍ طينيٍ وقد لاحظ فاراجي على إحداها عبارة «باب بوبرنوس» كُتبت في الأعلى داخل مساحةٍ بيضاء صغيرة. كان اللّون الأحمر يطغى على كل ما يراه، تماما مثل الأبنية الطّينيّة للبلدة، عدا كون الإسمنت هنا أكثرُ حضوراً. التفَّت الحافلةُ حول السّاحة ثم استقرّت عند بنايةٍ عُلّقت فوقها يافطةٌ ضخمةٌ كُتب عليها بلونٍ مُذهّبٍ «دار الثّقافة» وأسفلها كلمة «أدرار» بحجم صغيرٍ نسبياً.

انشغل الصّبية بالهبوط وسرعان ما اختلطوا بالهرج الذي استفحل بالتقاء تلاميذ مختلف المدارس. راحَ مُشرفهم يُجهد نفسه في لـمّ شملهم، قبل أن يفلح وقد تقطَّعت أنفاسه. دخلَ بهم حانقاً إلى المبنى، ثمّ اقتادهم إلى قاعة صغيرة، أين طلب منهم الانتظار ريثما يحين دورهم، ثم صفق الباب مغادراً. افترش فاراجي الأرضَ مثل البقيّة وافترسه التّفكير بعيده مجدّدا. أخذ يؤنِّب نفسه دون رحمة، وهو يتساءل كيف تجرأ على الكذب كي يَبدُوَ بمظهر الصّديقِ النَّبيلِ.

طالَ انتظارهم إلى حدٍّ مضجرٍ، قبل أن يدخل المشرف وهو يبدو متعجّلاً. طلب منهم أن يلحقوا به، فقد حان دورهم. قادهم إلى بوّابة ضيقة، ولَجَها الصّبية ليجدوا أنفسهم وسط منصّة رحبة تملؤها أضواءٌ غامرةٌ. تناهت إلى مسامعهم التّصفيقات من القاعة الفسيحة. كان في استقبالهم شخصٌ حسن الهندام، يتحسّس كل لحظةٍ ياقة قميصه ليعدلَ ربطة عنقه الرّفيعة. قدَّمهم باسم مدرستهم.

- والآن معنا من الجانب الآخر، أشبال مدرسة الوليّ الصّالح، الفقيه النّحرير، العارف ...

كان يمطُّ حديثه مُنمَقاً كلماته بتكلُّفٍ منفِّرٍ وهو يرشدهم إلى ركنٍ من المنصّة صُفَّت فيه بعض الكراسي، بينما اتخذَ الفريق المنافسُ مكانه في الرّكن المقابل.

بدت القاعة لفاراجي كما تخيّلها تماماً، غاصّةً بجمهورها، ترتفعُ فيها الأيادي كي تلوّح مشجّعةً. كان ضوء المصابيح السّاطع يحجب عنه الرّؤية بشكل جيد، لكنّه استطاع أن يلمح وجه المدير المتجهّم يتكوّم على كرسيٍ وثيرٍ في الصّفوف الأماميّة.

بعد فترةٍ وجيزة بدأت أطوار المسابقة. كان أوّل سؤال لصالح مدرسة فاراجي في مادَّة الرياضيّات. بدا أنَّ الحظَّ يبتسم له. اتفق الفريق على ترك الإجابة له مُعتمدين على موهبته. اكتفى أحدهم بكتابة صيغة السّؤال على ورقة ثم منحه

إياها كي يتقدّم نحو المقوَل وسط المنصّة. لم تكن تعوزه الثّقة بنفسه، بيدَ أنّه ما إن وقف ليجيبَ حتّى انتابه إحساسٌ غريبٌ. كان في وسعه أن يرى الصّفوف الأماميّة بشكلٍ أفضل. ألحّ عليه شيء ما بداخله أن يتفرس في وجوه الحاضرين علّه يلمح وجه عَيدَه. عبثاً حاول صرف فكْرِه عن ذلك. استعجله أحد أعضاء لجنة التّحكيم. ظلّ صامتاً تتشتّتُ نظراته بين الصّفوف. تعالت همسات رفاقه خلفه. شعرَ بالارتباك. لم يلمح وجهها. عاودَ عُضو اللّجنة طلبَ الإجابة. كانت يده تختلج رغماً عنه. نظرَ إلى الورقة. جثم الألم على صدره. تبلّد ذهنه. طلب منه عضو اللّجنة أن يعود إلى مكانه وهو ينظر إليه بازدراء مانحاً فريقه علامة صفر.

رجعَ إلى مقعده خائباً، تعكس وجوه زملائه المكفهرةُ عتمةَ الفراغِ بداخله. كان ممتقعَ اللّون ولم يحر ردًّا على تذمّرهم. اكتفى بالقعود مستسلماً. كان معهم وكان مع ذلك وحده. فكّر أنّها لم تكن هناك، وأنّه لا معنى لأن يلبس رداءَ البطل طالما أنّها لم تعد ترى فيه سوى شخصٍ مغرورٍ كاذبٍ، ولعلها قرّرت عدم المجيء بسببه.

شعر بعدم الرّغبة في أيّ شيء، لكن صوتاً خافتاً كان يصيحَ بداخله محاولا إقناعه أنّه لم يكن يُفكّرَ بعَيدَه حين امتلك موهبته وأنّ لديه الآن فرصةً سانحةً كي يثبت نبوغهُ للجميع ويجتثَّ من أذهان من عرفوه ذكرى الصّبيَ البليد. حاول كبت هذا الصّوت، بيدَ أنّه لم يزدد إلّا تعاظماً وقد صوّر له أنَّ بعض صديقاتها اللّائي حضرن سيخبرنها كيف وقفَ يمسك بخناقِ المقولِ كالأبكمِ، يكادُ يتبوّلُ على نفسه من فرط البلاهة. تنامت فيه رغبةٌ مُلحّةٌ للإجابة على سؤال التّاريخ الذي كان يطرح تلك اللّحظة على فريقه. افتكّ الورقة من يد أحد زملاءه وهبّ واقفاً. كان أكثر ثباتاً. أخذت همهمات الحاضرين، الذين استشرفوا برؤوسهم فور وقوفه، تُضفي على القاعة مسحةً من الفوضى والتّوجس تُنبأ أنَّ خطباً ما على وشك الوقوع. نمتَ أصواتُ استغراب، تتخلّلها بعض الضّحكات، غير أنّها خمدت حالما شرعَ في الإجابة. كان يقدّم تفاصيل جوابه باستفاضة دون أن يطالع الورقة واضطرَ رئيس اللجنة إلى عدم التّعليق مانحا إيّاه العلامة الكاملة. ندّت هنا وهناك

صيحاتُ إعجاب وتقافز رفاقه فرحاً. لم يُخفِ أحد الأساتذة إعجابه بالصّبيّ لتخلُّصه من الارتباك الذي ألجمه آنفاً. استأذن فاراجي، وقد استمسك برباطة جأشه، بالقول أنَّه كان يعرفُ الإجابة وفي وسعه أن يضيف ملاحظةً هامّة بشأنها. ترددت اللّجنة في منحه فرصة الحديث، لكنَّ أحد أعضاءها طلبَ السّماح له بالتحدُّث شريطة الإيجاز. أورد ملاحظةً دقيقةً أبهرت الأستاذ المصحّح وجعلته يهزّ رأسه موافقاً، قبل أن يختم إعجابه قائلا،

- هذا الصّبيّ نابغة!

تحوّلت أمسيةُ فاراجي من كابوسٍ في بدايتها إلى نصرٍ مؤزّرٍ تعاطف معه الجمهور وقرّرت اللّجنة منحهُ جائزةً خاصّةً نظيرَ تميّزه. لم يشعر يوماً بما انتابه من أحاسيسَ غامرةٍ وسط احتفاء الجميع بنجابته، لولا أنَّ الألم الممضّ كان لا يزال قابعاً بصدره.

في طريق العودة، مزّقَ غلاف عُلبةِ جائزته وعبارات التّهاني تتوالى من رفاقه الذين دفعهم الفُضول إلى التّحلُّق حوله كي يكتشفوا ما نَالَه. كان بها طائرَ زُجاجيّ جميلٌ، تتشابك بداخله خطوطٌ ذات ألوانٍ زاهية، وقد كُتب على قاعدته «وِسَامُ التّميز». شعرَ بغبطةٍ جامحة وظلّ يُحدّق في الخطوط الملوّنة التي تآلفت بطريقة أخّاذة داخل جسد الطّائر. قفزَ طيفُ عَيدَه إلى ذهنه مُجدّدًا. فكّرَ في إهداءه لها ودَبّ في عينيه الذّابلتينِ بَصِيصُ أملٍ مُلتاعٍ بأن تغفرَ له ما اقترف.

مَأزَقُ العَالِيَة

عند أوبتهِ إلى البيت، وجدَ فاراجي أمّهُ منشغلةً بمسح سلالم الدَّرج. تعلَّقَ بصرها بالعلبةِ ذات الغلافِ المزركشِ بين يديه، وبدا أنَّ الفُضولَ يستفزّها لكنّها لم تسأله. تذكَّرَ ما قاله المدير بشأن إرسال دعواتٍ خاصّةٍ للأولياء. خمّن أنَّها تلقتْ دعوتَها ولم تُعرها اهتماماً.

- شَارَكْتُ في المسابقةِ!... منحوني جائزة!

قالَ ذلك وكتشفَ لها عن الطَّائر الزّجاجي البرّاق. ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ زاهرةٌ مشوبةٌ بفيضٍ عارمٍ من الدَّهشةِ. أعادت منشفةَ الأرضيّةِ إلى الدَّلو أمامها، قبل أن تعتدل وتقول،

- أعطوكَ جائزة!؟

كان يغمرَها حبورٌ مُباغتٌ، لم ينتقص منه قولُ ابنها بنبرةِ لومٍ،

- اعتقدُ أنَّهم أرسلوا إليك دعوةً بالحضور... الجميع رافقهم أهلهم.

لم تمتعض لاستيائه وردَّت بحنانٍ طافحٍ،

- تعلمُ أنِّي أكدحُ من أجلك... ثمّ ما شأنكُ بالآخرين. هل أحضروا كلهم جوائز؟

أومأ لها بالنّفي فأردفت،

- أرأيتْ؟!.. أنتَ أفضلُ منهم إذن!

قالت ذلك وهي تحدِّق بشغف إلى ألوانِ الطَّائرِ الزّاهية.

- يبدو جميلاً! إنَّه يشبهُ الكَنَارِي... لكنّهُ أكبرَ حجماً بقليل.

حَاوَلتْ مَسكَهُ كي تُمعنَ النَّظرَ إليه. لامسَ الطَّائرَ بُقعَ الصّابونِ المتبقيَة على كفِّها فانفلت ليرتطمَ بالأرضيَة الإسمنتيَة، مَسْتَحيلاً إلى شَظَايَا تملأ أرجاءَ المكانِ. تيَبستْ في مكانها مُراوحَةً نَظراتها المتبلِّدة بين البَقايا الزُّجاجيةِ ووجهِ صبيها الذي اكتسحهُ ذُهولٌ مُطبقٌ وهو يرى جائزتهُ تتناثرَ من حوله. اختلجت يدها فقَرفصَتْ وقد شَعرَتْ بالوهن، قبل أن تَندَّ عنها شَهقةٌ عميقةٌ، تبعها صوتها المخنوق،

- لقد... لقد تحطَّم بالكامل!

تداخلت ملامح وجه الصّبيَ واغرورقت عيناه. أشاحَ ببصره على الفور لئلَّا تلتقي نظراتهما وصعدَ إلى غرفته صافقاً بابها بقوَة. تمدَّد على سريره زمناً دون أن تفارق الغُصّة حلقه. كان قد فكَّرَ أن يهدي الطَّائر إلى عَيدَه، أمّا الآن فلا حاجة للتّفكير به. كان يشعرَ في قرارة نفسه أنَّها لن تقبله منه لأنَّها تعتبر تصرفه، على الأرجح، عملاً دنيئاً لا يستحقّ الغفرانَ أبداً. حاولَ جاهداً أن يتناسى ألمهُ إلَّا أنَّ مزاجهُ ظلَّ مكدراً، حتّى أبرمَ عزمه على تدبّر أمرٍ يشغلُ به نفسه. قام من السّرير واتجه صوب الرّف الخشبيَ يتأمّل كُتبه. تذكَّر رسالة رمضان. بحث عنها بين الكتب حتّى وجدها. عادَ بها إلى سريره. فضَّ الورقة وحاول قراءتها. كان الخطَّ رديئًا، لكنّه مقروء. لم يخفَ عنه أنَّه ليس خطَّ صديقه. كُتبَ في أعلى الورقة «صديقي العـ...»، لكنَّ العبارة غير مكتملة وهي مشطوبة بسطرين. تحتها كُتب: « انتظرت أن أراك، لكنك لم تأت لزيارتي. هل أنت غاضب مني؟ زارني الجميع... حتى عَيدَه كانت هنا. سيأخذونني إلى المستشفى. أتمنى أن أراك قبل ذهابي.»

أكَلت الحسرةُ قلبهُ وهو يصلُ إلى نهايةِ الرَسالة. شعرَ أنَّه خَذَلَ صديقه بشكلٍ مُشينٍ. ليس لأنَه أهملهُ فحسب، بل لأنَّه فوق ذلك أهملَ قراءةَ رسالته. لو اطَّلع عليها في الوقت المناسب لما ارتكبَ حماقةَ كذبتهِ الفادحة. لم يقوَ على حبس

الدَّموع التي انهمرت على خديهِ مُستَلَّةً من جوفه حُرقَةَ النَّدم. نامَ وهو لا يزال يبكي.

في الصّباح، عَزَفَ عن تناول الإفطار. اكتفى بأن كَرَعَ قدح ماء دفعةً واحدةً، ثمّ حملَ محفظته وغادر البيت. كانت العالية تتوقَّعُ أن يطولَ انزعاجهُ بسبب طائره الزّجاجيّ، لكنّها لم تنتظر منه أن يرغبَ عن تناول الطّعام.

سارَ في طريقهِ إلى المدرسة متحاشياً أصدقائهُ الجددَ. كان يُخالجهُ حيالهم إحساسٌ بالقَرَفِ ليس له حدود. شعر أنَّهم شغلوه بشكلٍ ما عن رفيقه. فكَّر أنَّ الأيّام القليلة الماضية مَحَتْ عنه صفة الصّبيّ الأبله، لكنّها سَلبتهُ الإحساسَ بالأمانِ الذي كان يرين على حياته مع صديقه رغم رتابتها. لم يَزُلِ الألم الذي رَاوَحَهُ سابقاً سوى ليفسحَ المجالَ لألمٍ أكبرَ منه. كان يُدركُ أنَّ رمضان هو الشَّخصُ الوحيدُ الذي يجد برفقتهِ بعض العزاء في عالمٍ لا يستوعبه، لكنّه لم يُدرك سوى ليلة أمس أنَّ الأمرَ لا يقتصرَ على مجردِ الانسجام بينهما. كان أكثرَ من صديق بالنِّسبة له. لم يتصوّر يوما أنَّه سيرتكب في حقِّه فظاعةً كالتي اقترفها. أحسّ أنَّه خذلَ نفسه حين خذله.

- أنت!... سأغلقُ البوّابة... عليك أن تدخل الآن!

انتشله الصّوتُ الزّاعقُ لحارس المدرسة، واكتشفَ أنَّه ظلَّ يستغرقُ في أفكاره زمناً. رمقهُ الحارسَ بنظرته المستعجلة، لكنَّ الصّبيّ التفَّ ومشى مبتعداً دون أن يقول شيئاً.

قرّر أنَّه لا يرغبُ بالدّخول إلى المدرسة. لم يرغبَ في الحقيقة سوى في أمرٍ واحدٍ، أن يرى صديقه رمضان. لم يكن يعرف كيف يصلُ إليه، مع أنَّه يعلم بوجوده في مستشفىً ما بمركز الولاية. تركت سفريّةٌ نهار أمس انطباعاً لديه بأنَّه لن يستطيعَ الوصول إلى صديقه بسبب أمواجِ البشرِ التي تملأ شوارع المدينة. خمّن أنَّ عليه طلب المساعدة من شخصٍ ما. فكَّر لوهلةٍ بأمّه لكنّه نبذ هذا

الاحتمالَ فوراً. لا يرغب في الحديث معها أصلاً. خَطَرَ العجوزُ بباله.

راحَ يغذُّ السّير في المفازةِ المقفرةِ بعيداً عن البلدة. قطعَ المسافةَ في وقتٍ بدا له أقصرَ بكثيرٍ من المعتاد. كان يشغل باله بعَيدَه وبذكرياته مع صديقه الذي تعاظم اشتياقه له. ما إن قاربَ التِّلال حتّى رأى العجوزَ يجرّ درّاجته استعداداً للقيام بجولته الصّباحيّة.

- كنت أفكِّر فيك يا صديقي! أليس هذا غريباً!

قال العجوزُ ذلك وركنَ درّاجته إلى إحدى الصّخور. اقترحَ أن يقوما بالجولة مشياً وشجّعه على ذلك بحمل محفظته. كان يطفحَ بالحماسِ وأدركَ فاراجي أنَّ لذلك علاقةً بآلته، لأنَّها بَدَتْ مصدر سعادته الوحيد. حاولَ أن يخبرهُ برغبته في زيارةِ صديقه، لكنَّ الرّجلَ لم يدع له مجالاً للحديث. طفقَ يثرثرُ حولَ إفضاء جهوده المضنيةِ إلى مرحلةٍ يَعتقدُ أنَّها حرجةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ. لم يحاول الإصغاء لما يودُّ الصّبيّ قولهُ. تحدَّثَ بانفعالٍ متدفِّقٍ، ثمّ فجأةً اقترح أن يقطعا جولتهما ويعودا إلى المختبر. رفضَ فاراجي الانصياعَ وقد وجدَ أخيراً فُسحةً للكلام. طلب منه أن يساعده ليزورَ صديقه في مستشفى المدينة. امتقعَ لونُ العجوزِ وحدَّق إليه مطوّلاً قبل أن يقول بنزقٍ واضحٍ،

- لا أستطيع!

لم يضف كلمةً أخرى وتوجّه صوبَ مختبرِه، تاركاً الصّبيّ يقفُ وحيداً في العراء.

لم تفعل العالية شيئاً ذَا بالِ تلك الصبيحة. كان ذهنها مشوّشاً، وقد أخذت تفكِّر في طريقة تُكفِّر بها عما حدث مع ابنها. كانت تشعرُ أنَّها أفسدت عليه فرحتهُ وأنَّ عليها القيام بشيء ما حيالَ الأمر. جلستَ إلى المائدة وراحت تُحدِّقُ في قطع الزّجاج البِلوريّةِ التي جمعتها في كأس. خطرت ببالها فكرةٌ فوقفت مسرعة. وضعتْ طَرحَتَها على رأسها، ثمّ غادرت البيت.

عند مكتبِ مدير المدرسة، وقفت تنتظرَ الإذنَ بالدّخولِ. أقبلَ السَكرتيرَ بعد لحظاتِ وطلبَ منها مرافقته. دخلا فوقف المديرَ وقد رسم ابتسامةً مصطنعةً على محياه.

- سُررت بزيارتك سيدتي... أنت والدةُ فَارَاجِي؟

ردّت بالإيجاب. راحَ يَطنبَ على التّغير المفاجئ الذي طَرَأَ على ابنها، مستفسرا عن سببه.لم يَجِدْ لديها سوى إجاباتِ مبهمةِ لا تروي غَليلهُ. أدركَ أنّ المرأةَ لا تستوعبَ حجمَ الطّفرةِ التي يتحدّث عنها، وخلصَ في النّهاية إلى اعتقادِ جازمٍ أنّ وراء نجابةِ الصّبيَ المفاجئةِ سِراً غامضاً لا تعرفه حتّى أمه.

- لا أنكرَ أنّني وضعتهُ ضمن قائمة التّلاميذ الذين سيَحالونَ على الحياةَ المهنيَة مع نهايةِ السّنة... لكنّني لا أقتنعُ تماما أن إفصاحي عن اتخاذ هذا القرار هو ما فجّر طاقاته العجيبةِ.

أخبرتهُ العالية أنها فقدت صوابها حين علمت بقرارهِ وكادت تقتلُ ابنها في فورة غضبها العارمِ، ثُمّ أضافت قائلةً باعتقادها أنّ تهورها معه دفعهُ بشكلِ ما للانكبابِ على دراستهِ. لم يقتنعِ المدير بكلامها.

- على أيّ حالِ، أنا فخورٌ جدًا بكونهِ أسهمَ بقسطِ كبيرِ في فوزِ المدرسةِ بالمركزِ الأوّل في المسابقة الولائية.

قالَ ذلك وهو يمتلأ زهواً، قبل أن تُطفأ العالية حماستهُ وهي تخبرهُ بما حدث لطائرِ ابنها.

- لا أعلمٌ إن كان في وسعكم سيدي، أن تمنحوه جائزةً أخرى..؟

نظرَ إليها المديرَ وقد اكتست ملامحهُ خليطاً من الحسرةِ والذُهول. شعرَ أنّها تحملُ سذاجةً غير محدودةِ، لكنّها على أيّ حالِ تحاول مساعدةَ ابنها. أطرق

برأسهِ قليلاً قبل أن يقول،

- كنت أفكّر في تقديمِ تحفيزات تشجيعيةِ بسيطةِ على هامشِ حفلِ اختتامِ الموسمِ... قد يكونُ من الملائمِ أن نعوّضَ ابنكِ خلالهُ عن جائزتهِ نظيرَ ما فعله.

غمرَ الحبورُ وجهَ العالية وجعلت تُرسلُ عبارات الشُّكر والامتنان، قبلَ أن تغادرَ مسرورةً بإيجادِ حلٍ يُصلحُ ما أفسدته. لم تكن قد اجتازت منتصفَ الباحةِ حين سمعت صوت أحدهم يصيحُ خلفها.

- سيدتي!... سيدتي!

كان السَكرتيرُ يلوّحُ إليها بالعودة، فعادت أدراجها. ما إن دخلت مكتبَ المديرِ مجدّدا حتى ابتدرها سائلاً،

- هل تغيّبَ ابنك بسببِ الطّائر؟!

انشقلت حواجبها في ذهولٍ وبدا أنّها لم تستوعبِ السّؤالَ جيداً. كانت متأكّدةً أنّ ابنها غادرَ إلى المدرسةِ باكراً.

مَعَارِفٌ مِنْ نَوْعٍ آخَر

جلست العالية إلى مائدة المطبخ تائهة اللُّب، تسرحُ بنظراتها في قدرِ المرقِ أمامها. تناهى إلى سمعها صوتُ بابِ المدخلِ، تلاهُ بعد برهة وقعُ خطوات ابنها يصعد الدَّرج. مكثَ في غرفته زمناً يسيراً قبل أن ينزلَ ويلتحقَ بمائدة الغذاء. أخذ يتناول طعامهُ بتثاقلٍ غير عابئٍ بنظراتها المتفحّصة. كان وجههُ متجهِّماً وقد علت مسحةُ غبارٍ شعرهُ لكأنَّه خرجَ تواً من زوبعة. لم تدرِ أيتعيّنُ عليها إخبارهُ أنَّها ذهبت إلى المدرسة ولم تجده، أم الأوفقُ أن تسأله عن حالِ دراسته وترى إن كان سيخفي عنها الأمر. حَمَلت صحن مرق ورغيف خبز وراحت تطعم أخاها في الغرفة المجاورة وهي لا تزالُ تفكِّرَ في الخيار الأنسب. كانت الحيرة تتآكلها. ربّما واجهته بالأمر، فاختلقَ عُذرا يبرِّرَ غيابه دون أن يقول الحقيقة، وربّما كان لغيابه علاقةٌ بالسِّر الغامض الذي ما فتأ مدير المدرسة يتحدَّث عنه. هي ذاتها يلازمها منذ أيّامٍ هاجسٌ غامضٌ بأنَّ ثمَّة خطباً يحلُ بابنها. تضاربت الخواطر بخلدها حتّى سمعت وقع خطواته عائداً إلى غرفته. بدا لها أنَّه ازدرد ما بقي من غذاءه على عجل. أزمعت الصّعودَ إليه كي تفاتحهُ بالأمر. ما إن وطئت قدماها أوّل سلالم الدَّرج حتّى كان ينزل مسرعاً.

- سأذهب لأذاكر مع أصدقائي.

قال ذلك بجفاء واجتازها حاملاً حقيبته على ظهره. كانت ستستوقفه، بَيدَ أنَّها امتنعت لسببٍ ما واكتفت بمراقبته وهو يغادرُ المنزلِ. تبادرَ إلى ذهنها أنَّه لا يذهبَ للمذاكرة. أسرعت لارتداء إزارها وخرجت في أعقابه.

راحت تقتفي خطواته من بعيد وهو يمشي عبر الطَّريق التّرابيَ المؤدي إلى حقولِ البلدة الجنوبيّة. بدا وكأنَّه يسيرَ منشغلَ البالِ لا يلتفت لشيء. تعدَّى آخر البنايات الطوبيّة وشرع يتوغَّل وسط الحقول. حثَّت الخطى كي لا تضيَع أثره.

أتاح لها التّخفي وراء الأشجارِ أن تقترب منه أكثرَ فأكثرَ، لكنَّ الأمر انتهى بتجاوزِ فُسحة الخُضرة وصولاً إلى الأراضي البور، أين طفقت قدماها تغوصُ في الرمال. لم تكن أشجارُ النَّخيلِ المتباعدة تمنحها فرصةً لالتقاط أنفاسها دون المجازفة بفقدان أثره، لكنَّ ذلك لم يكن أصعبَ ما واجهها.

كان فاراجي قد شرعَ يجدُّ السّيرَ تاركاً خلفهُ البَورَ، ليمخرَ غبارَ المفازة الجرداء. لم يعد للعالية شجرةٌ تداريها في هذه الأرض المنبسطة. أُسقطَ في يدها للحظات، قبل أن تُقرَر نزع إزارها ذو اللّونِ الأخضرِ الباهت خشيَةَ أن يكشف أمرها. شرعت تركضُ خطواتٌ ثمّ تقرفصُ جاهدةً ألاّ تلفتَ انتباهه وقد تقدَّمها بمسافة معتبرة. كان وجيب قلبها يتسارعُ وبدت غير عابئة بسيلِ العَرَقِ المنهمرِ من جسدها. تردَّدَ بخلدها صوت المدير قائلاً «لا بدَّ أنَّ وراء تحوّله الغريبِ سرّاً غامضاً.» اجتهدت في أن تحافظَ على مسافة آمنة بينها وبينه، دون أن تدعهُ يغيب عن ناظريها. تعبت قدماها من الجري والقرفصة. ظلّت على هذا الحالِ مسافةً طويلةً. تعاظمَ خوفها و لم تعد تستبعد ما سمعته بشأن تلبّس الجنّ بابنها. خطرَ لها أن تصرخَ فيه وتوقفه مُنهيةً هذه الرحلةَ المضنية، لكنّها كبحت جماحها، مُزمعةً أن تعرف إلامَ سينتهي به المطاف.

رأتهُ يتجاوزُ القصر الطينيَ المهجور «لتماسخت» ويُيَمّمُ شطرَ التّلال القريبة. بدا لها أنَّ رحلتهما ستنتهي عند هذا الحدِّ. اختارت صخرةً تستردُّ خلفها أنفاسها وهي ترقبه. انتابها الهلعُ حين رأت رجلاً يظهرَ من بين التّلال. وقف يتحدَّثُ مع ابنها لبرهة، قبل أن يغيبَ ويلتحق به الصّبي. تواريا عن ناظريها. عجزت عن ابتلاع ريقها وهي تفكّرَ فيما إن كان من رأته إنسياً أم جانًّا. استفحل اضطرابها ولم تدرِ ما يتوجب عليها فعلهُ بعدما ظلّت على حالها زمناً دون أن يعاود أيّ منهما الظُّهور.

في الدّاخلِ كان العجوزُ يقتعد كرسيّ العجلات المطّاطية قُبالةَ فاراجي وهو يرنو إليه بعينينِ منكسرتين. لقد أفلحَ في زعزعةِ إصراره على عدمَ مساعدته. لم يسعه مجابهةُ توسلاته بعد أن روى له ما حدث مع صديقه.

- لابأس، سأرافقك! مع أنَّها أكبر حماقة سأرتكبها!

قال ذلك وكأنَّه أُرغمَ على فعلِ آخرِ شيء قد يرغبُ بفعله في حياته. أشرقَ وجهُ الصّبيَ للحظة، قبل أن يردفَ العجوز بنبرةٍ لا تحتملُ التَّراجع،

- ولكن ليسَ الآن!

- متى؟!

اشترطَ عليه أن يؤجّلا زيارتهما إلى ما بعد الغروب، لأنَّه لا يسعه السّفر في وضحِ النَّهار تحت أيّ ظرفٍ من الظُّروف. وافقَ فاراجي على مضضٍ. كان الأهمّ بالنِّسبة لهُ أن يتمكَّن من رؤيةِ صديقه ويعتذرَ له.

كان لديهما متّسعٌ من الوقت كي يُجريا فحصاً لتهافت الشَّحن الدِّماغيَ ريثما يحلُّ المساء. اقتعد الصّبيَ الأريكة وراح العجوزُ يعينهُ على وضع الخوذة، ثمّ انشغل بعد لحظاتٍ بالتطلّع إلى الشَّاشة. كان يُصغي أثناءَ ذلك إلى قصّة المسابقة التي أخذَ الصّبيَ يرويها بحماس بالغٍ، قبلَ أن تخنقَ صوته الحسرة وهو يصفُ كيف تحولَ طائره الجميل إلى شظايا. شعر العجوز بالأسى حيالهُ وأخذ يواسيه قائلاً أنَّ جائزته الحقيقيةَ تكمنُ في نبوغه الذي سيغدو لاحقاً أسطورةً يتحدَّث بها العالم. صمت للحظاتِ متأمّلا بُقعَ الوميض في الصّورة التّخطيطيةِ على الشَّاشة.

- يبدو أنَّ التَّراكب لا زالَ يتهافتُ... لكنَّ ذلك يغدو أبطأ كلَّما كرّرنا عمليةَ الشَّحن.

قال ذلك وأطرقَ مفكّراً لوهلةٍ، ثمّ أردف

- يبدو هذا منطقياً!... حتّى في طرقِ التّعليمِ التّقليدية يتطلّبُ الأمرَ بعضَ التّكرار!

أطلقَ الصّبيَ ضحكةً غريبةً. كان جحوظُ عيني العجوزِ حين يكتشفُ أمراً

واهتزاز الشُّعيرات القليلةِ المتمسَّكةُ في استماتةِ بطرفي رأسه، يبعثان فيه رغبةً مُلحّةً على الضَّحك.

- لا شكَّ أنَّ ربطَ المعارفِ الجديدةِ بما يتوفَّرَ منها سلفاً هو ما يجعلها أيسرَ للرَسوخِ في الذّهن...

قال الرَجلُ مفكّراً بصوتٍ مرتفع، دون أن يُلقي بالاً لضحكِ الصَبيَ. انكبّ على حاسوبهِ ينشغلُ بأمرٍ ما، قبل أن يلتفت إلى فاراجي بعدَ لَأيٍ ويقول بحماس مُرتابٍ،

- قد نجعلُ التّهافتَ يتناقصُ إلى حدٍّ كبيرٍ، إن نجحنا في ربط المعلوماتِ المكتسبةِ بما يخزِّنه دماغُك بشكلٍ طبيعيَ. سيستلزمُ ذلك أن تَستَقي موجاتُ الشَّحنِ بعض تَردُّدَاتها من ذاكرتك!

لم يستوعب الصَبيَ كلامهُ، لكنّه أدركَ أنَّ الأمر يجب أن يستندَ إلى ذكرياته بشكلٍ ما. ساد بينهما صمتٌ مفاجئ، قطعه فاراجي بسؤاله،

- هل في وسعنا أن نختارَ بدلَ المعلوماتِ المدرسيَة شيئاً آخر؟

لم يعِ العجوزُ قصده، فأردف موضحاً،

- هل يمكنك أن تشحنَ دماغي بحزمةِ تتعلق بــ. حسنا! فلنقل بالغرور والكذب مثلاً!

تردَّدَ الرَجل في الردِّ وهو يحدِّقُ إلى وجه الصّبيَ، مُدركاً أنَّ شخصاً ما جرحهُ بهذه الأوصافِ السّيئة.

- مبدئياً، ليسَ الأمرَ مُعجزاً... سيكون عليَ أن أعدَّ حُزمةً من المعارفِ في مجالِ التَّربية أو علم النَّفس... لكنَّ النَّتيجةَ ستتوقَّفُ على ذكرياتك إلى حدٍّ كبيرٍ، حسب ما أعتقد.

- فلنفعل ذلك إذن!

كان الصّبيَ متحمَساً ولم يكن العجوزُ أقلَّ حماساً بعد أن فكَّرَ في الأمرِ لوهلة وبدا له أنَّ افتقارَ المعارفِ غيرِ التّقنية إلى الدّقة سيفسحُ المجال بشكلٍ أكبَر لاحتمال زيادة تأثيرِ الذّكريات في عمليةِ التّراكب. أجرى آخر إعداداتِ البدء في عمليةِ الشّحن ثمّ ضغطَ زرّ التّشغيلِ. شرعت المصابيحُ الضّوئية على الخوذة تُومضُ مصدرةً طنينها، قبلَ أن يهتزّ جسدُ الصّبيَ ويُغمضَ عينيه.

هُلَامِيات

رَأى فاراجي نَفْسَهُ وكأنَّهُ يتجوّلُ في عالمٍ ضبابيّ غريبةٌ أجواءهُ، تملأهُ مخلوقاتٌ هُلاميّةٌ قبيحةُ الأشكالِ، ذاتَ روائحَ لاذعة، تتحركُ كلُّها باتجاه واحد. بدا أنَّها لا تلاحظُ وجودهُ. راح يسلكُ سبيلها متسائلاً عن مقصدها، حتّى انتهى به المسيرُ إلى جمعِ غفيرٍ من مثيلاتها. اقترب شيئاً فشيئاً وقد زكمتَ أنفهُ نتانةٌ ما يعبقُ به الجو من زَنَخ. ثمّ أنَّه شرعَ يشقُّ طريقهُ بينها، علّهُ يتبيّنُ ما تتحلّقُ حوله. وصلَ بعدَ جُهدٍ إلى فُسحةٍ واسعةٍ غدتْ فيها الروائحُ أكثرَ نفاذاً، وقد توسّطت بالفسحة أريكةٌ ضخمةٌ، يقتعدُها مخلوقٌ فارعُ القامة، ذميمُ المنظرِ، تحملُ قسماتُ وجهه بعضاً من ملامحِ والدِ عَيدَه. بدا وكأنَّهُ يملكُ سلطةً على الباقين، وقد وقفَ قبالتهُ في خنوعٍ مخلوقٌ ضئيلُ الحجمِ يتهدَّجُ صوتهُ بالحديثِ قائلاً،

- لعلَّهُ يُريدكَ في أمرٍ جسيمٍ...

صدرتْ عن صاحبِ الأريكة إيماءةٌ جَعَلت المخلوقَ الضّئيلَ يلتفتُ إلى جهةٍ من الجمعِ ويشيرُ بالقُدُومِ. تَقَدَّمَ مخلوقٌ هُلاميّ رأى فيه فاراجي شبهاً بلحّامِ الحي وقد اكتست وجههُ بثورٌ بشعةٌ. أثارت يداهُ الطويلتانِ دهشتهُ، فطفقَ يُرهفُ السّمع لما سيقولهُ، وقد انحنى أمامَ الأريكةِ في إجلالٍ قبلَ أن يعتدلَ قائلاً،

- سمعتُها تتحدَّثُ عنك بالسّوء مجدَّداً!

قال صاحبُ البثورِ ذلك وسكت لكأنَّهُ ينتظرُ استحساناً نظيرَ مقالته، بيدَ أنَّ زمجرةً صدرت عن صاحبِ الأريكةِ، جعلتهُ يُردفُ وقد ارتعدت فرائصهُ،

- ألفيتُها تغسلُ جناحيها عند النَّهر كما اعتادت وهي تُدندنُ بأغنيةٍ مُهينةٍ لجنابكم... كانت تقولُ،

ارحلي عَنّي بعيـــــداً نحو وديــــــانٍ كَــرِيــهَهْ
ارحـــــلي حيـــث النَّتانة نَطَـــفَتْ فــوقَ الأريــكَهْ

ما إن تلفظَ بما قالهُ حتّى جحظت عينا صاحبِ الأريكة. استشاطَ غضباً فأرغَى وأزبدَ قائلاً،

- تتطاولُ علينا هذه الحقيرةُ بمرأىً ومسمعٍ منكم، دونَ أن يحركَ أحدكمُ ساكناً!

رَانَ صمتٌ مُتوجّسٌ على الحشدِ زمناً، قبلَ أن يرنَّ صوتٌ من بين الصّفوف هاتفاً،

- دعها لنا يا سيدي!

اشرأبت رؤوسَ الجمعِ صَوبَ الصّوتِ، فتقدَّمَ مخلوقانِ أحدهُما عظيمُ الجثَّة، حتّى أنَّهُ بَدا أكبر الحاضرين حجماً وقد تقاطرَ لعابُ مقززٌ من فمه. لم يَخفَ على فاراجي شبههُ الغريبَ بمديرِ مدرسته. أمّا الآخرَ فكان مُبَرقَشاً بألوانٍ مختلفة، يضعُ ربطةَ عنقٍ كتلك التي رآها عندَ مُنشِّطِ المسابقة، وقد طفقَ كفَّاهُ الضّخمانِ يرتعشانِ بخفَّةٍ كأنَّما لا يسعهُ التّحكمَ فيهما. كان هو من تكلّم فقال،

- - سنُخلِّص جَنَابَكُم من هذه الرّعناء... إن سمحتم لنا بذلك.

تفرسَ فيهما صاحبَ الأريكة برهةً، قبلَ أن يُومأ لهما بالانصراف. شَقّ الاثنانِ طريقهما بين الحشود، واقتفى الصّبي أثرهما. سارَ الثّلاثة زمناً حتّى أشرفوا على هضبةٍ واسعة، يسيلُ على سفحها نهرَ تتلألأ مياههُ الجاريةُ. أشارَ ذُو الألوانِ المبرقشةِ صوبَ إحدى الضِّفتين قائلاً،

- إنَّها هُناك!

أمعنَ فاراجي النَّظرَ فرأى عصفورةً شديدةَ الشَّبهِ بطائرِهِ الزّجاجيَ وصاحَ فاغراً فاهُ في ذهولٍ،

- طائري!

بدا وكأنَّ أحداً لا يسمعهُ وهو يصيحُ وينطُ في اختلاجٍ، حتّى هدأ روعهُ قليلاً، فسمعَ المبرقشَ يشيرُ على الضَّخم بأن يجثو غير بعيدٍ عن النّهرِ مُخفياً رأسهُ وقدميه. استجاب الضّخم لأمرهِ بطريقةٍ عجيبة. ثمّ أنَّ المبرقشَ التفَّ خلفهُ وشرعَ يحفرُ بكفَّيه المرتعشتينِ حُفرةً عميقةً، خرجَ منها بعد زمنٍ نافضاً يديه وهو يقول،

- - عليكَ أن تظلَّ ساكناً حتّى أصدرَ لكَ الإشارةَ فتهُزّ ظهركَ بقوّةٍ صوبَ الحفرةِ.

أومأ الضَّخم أنْ نعم، وعمدَ رفيقهُ ليختبرَ الحفرةَ بأن ألقى فيها حجراً صغيراً، غير أنَّ الحجرَ أصدرَ جلبةً هائلةً، جعلت العُصفورةَ تنظرُ صوبَ وجهته وقد أخذَهَا الرّوعُ لمرأى الضَّخمِ مكوّما كالتّلِّ الصّغيرِ. قالت مستريبةً من رؤيةِ المبرقشِ قادماً نحوها،

- - ما جاءَ بك؟ وأيّ شأنٍ لك بهذا التّلِّ الذي نبتَ هناكَ على حينِ غرّةٍ؟!

أجابها مُصطنعاً تعبهُ الشَّديدَ،

- - إنَّها قصّةٌ طويلةٌ سأرويها لكِ، على أن تدعيني أستردَّ أنفاسي أولاً.

فما كانَ منها إلّا أن أفسحتْ لهُ مكاناً بقربها وهي تقول،

- - استعد أنفاسكَ ثُمّ نبأني قصّتك.

تمدَّدَ المبرقشُ على الضِّفةِ بجانبها، بينما وقفَ فاراجي على مقربةٍ وقد تحيّر من انهماكِ العصفورةِ التي لا تَنِ تُحركُ جناحيها بين فينةٍ وأخرى ثمّ تغطسُ في

النّهرِ، لتعودَ ببقعٍ سوداء تتكاثرُ على ريشها بسرعةٍ فتنشغلَ بانتزاعها. عاجلها المبرقشُ بالسؤالِ وقد أقلقهُ ما تفعلُ،

- - أنتِ تغطسينَ في الماء كثيراً!... ألا يزعجكِ ذلك؟

أجابتهُ بابتسامةٍ قائلةً،

- - عليّ أن أفعلَ هذا لأحتفظَ بجناحيّ نظيفينِ وإلّا تراكمت البقَعُ وغدت إزالتُها أمراً عسيراً.

ثمّ أنَّ جليسَها افتعلَ شدَّةَ استغرابِه وحدَّقَ إلى جناحيها سائلاً،

- - بالكادِ لمحتُها!... كيف يسعكِ رُؤيةُ بقعٍ صغيرةٍ كهذه؟!

رسمت ابتسامتها المزهوّةَ مجدَّداً وقد سرّها إطراءَ حدَّةِ بصرها فقالت،

- - أستطيعُ أن أراها حتّى ولو كانت بعيدةً جدّاً!

اصطنعَ المبرقشُ إثرَ ذلك استشناعَه لقولها وصاح،

- - أراكِ تبالغينَ بما لا يسعني تصديقهُ!

ثمّ أنّه جعلَ يتحدّى زعمها، واقترح أن تتركَ قربهُ جناحيها ثمّ تبتعد كي يتيقّنَ الأمرَ. فما كان منها إلّا أن سلّمتهُ الجناحين وقد علقت بهما بقعتانِ، وشرعت بعدها تتراجعُ خطواتٍ إلى الوراء قبلَ أن تقول،

- - إنّها الآن ثماني بقع.

- - ابتعدي أكثر!

تراجعت أكثر ثمّ أمعنت النّظرَ وقالت،

-       - إنَّها عشرون!

طفقَ يشيرَ عليها بالتَّراجعِ أكثرَ فأكثرَ، حتّى وصلت قربَ التَّلِّ الصّغيرِ، فاقترحَ عليها أن تصعدَ فوقهُ لتثبتَ صدقَها. لم تُحاول تبيّنَ حقيقةِ التَّلِّ، إذْ كانت مستعدَّةً لفعلِ أيِّ شيءٍ كي تثبتَ قدرتَها على رؤيةِ البقعِ من أيِّ مسافةٍ، غيرَ أنَّها ما إنْ بلغت أعلاهُ حتّى قالت مستغربةً،

-       - لم أعد أراها!

ابتسمَ المبرقشُ في خُبثٍ وقالَ ساخراً،

-       - طبعاً!... إذا امتطى العظيمُ صهوةَ التّكبرِ عجزَ عن رؤيةِ أخطاءِه.

ثمَّ أنَّهُ أصدرَ صفيراً حاداً أخذَ الضَّخمُ إثرهُ يهزُّ ظهرهُ بعنفٍ، فقذفَ بالعصفورةِ المعدمةِ الجناحينِ صوبَ الحفرةِ العميقةِ، بينما هرعَ رفيقهُ ليحثو عليها التُّرابَ غيرِ عابئٍ بتوسلاتها، حتّى خمدَ صوتُها. عندئذ أنشأ الضَّخم يرقصُ منتشياً يردِّدُ،

-       - دَفَنَ الغُرورُ العَظَمةَ!

تعالت قهقهاتٌ مزعجةٌ في ذهنِ فاراجي. لم يقوَ على البقاء وقد ظلّتْ صرخاتُه حبيسةَ حلقه، فانطلقَ يعدو بعيداً ينهمرُ سيلٌ من الدُّموعِ على خدَّيه. لكنَّه توقَّفَ فجأةً عنِ البكاءِ وقد لاحظَ شيئاً مُغرقاً في الغرابةِ. كانت قطراتُ دموعِه تسقطُ على الأرضِ فتتحوّلُ كل واحدةٍ منها بشكلٍ غامضٍ إلى مخلوقٍ صغيرٍ يدبّ بعيداً عنه. لم تكن بشعةً، بل كانت عديمةَ الملامحِ، وبدا لهُ أنَّ في وسعه سماع أصواتها لكنَّه لم يع ما كانت تقوله. جعلَ يدقِّقُ النّظرَ إليها فرآها تسلكُ طريق الهضبةِ الذي أتى منه قبلَ فترةٍ. خمّنَ أنَّها تعرفُ سبيلها إلى الحشود الهُلامية حيثُ يوجدُ صاحبَ الأريكةِ، فحاولَ صرفها عن الذَّهابِ هنالك، لكنَّ جهودهُ ضاعت سُدى، إذ لم تحفل به أيّ منها.

سارَ هائماً على وجههِ، يدركُ أنَّه يعيشُ حلماً ويودُّ لو يخرج منه، بيدَ أنَّهُ لا يحيرُ سبيلاً للخلاصِ. تعثَّرَ في طريقه بشيء يتمدَّدُ على الأرض، فتولَّاهُ الفزعُ منه. كان مخلوقاً هلامياً بالغ النَّحافةِ، يلبسُ رداءاً بالياً يتدلَّى حولَ أطرافهِ، وقد علت وجههُ مسحةُ حزنٍ عميقٍ. توسّمَ فيه نفسهُ لحظةً أن مزّقت عَيدَه رسالته في وجهه. بدا أنَّ المخلوقَ يرنو إليه بعينين ذابلتين، فجفلَ معتقداً أنَّه يراهُ. لم يتفطَّن لصاحبِ البثورِ الذي رآهُ آنفاً، يسيرَ خلف ظهرهِ حتّى توقَّفَ على رأسِ ذو الرداء وسأله،

- - ألم تجد لكَ سيداً بعد؟

هزَّ ذو الرداء رأسهُ نافياً ثم أطرقَ في غمٍّ، فحاول صاحبَ البثور انتشالهُ من همّه قائلاً،

- - لا أحدَ يرغبَ بخادمٍ لا يحسنُ فعلَ شيء. عليكَ أن تجدَ لنفسكَ صنعةً تلفتُ الأنظارَ إليك، إذْ لا يليقُ بالمرء أن يبقى دونَ سيدٍ يرعاه!

سكتَ هنيهةً ثمَّ أردفَ بحزم،

- - قُم! سأعلِّمكَ حيلةً وآخذكَ بعدها إلى سوق الخَدمِ، علَّك تظفرَ بسيد يقبلَ بك.

قال ذلك وأعانهُ على الوقوفِ معتدلاً، ثمّ أنَّه رشَّ عليه شيئاً، وابتسمَ في خبثٍ.

- - سيكونُ سرك في رداءَك! سترى أنَّ هذا سيغيّرَ حالك... سأعلِّمك كيف

تستخدمهُ في الطَّريق، هيَا!

انطلقا يداً بيدٍ يتهامسان. دفعَ الفُضولُ فاراجي إلى اللّحاقِ بهما، ليعرفَ ما سيؤول إليه أمر ذو الرداء. كانا يسيرانِ بسرعةِ تعذّر عليه مجاراتهما، فاستسلمَ بعد مدَّةٍ وقد عثرَ على حفنةٍ من دموعهِ تدبّ في اتجاهِ آخر. رأى بعضها يحملُ فوق رؤوسه شيئاً يشبهُ الدَّم. تبعها حتّى ألفى نفسهُ يقفُ مرَةً أخرى بين يدي صاحبِ الأريكة. لم يدرِ ما عسى دموعهُ تفعلُ هناك. طفقَ يتأمّلها وقد انقسمت إلى فئتينِ، أولاهما ضمت من القطرات ما جمعت دماً والأخرى ما خلا وفاضُها.

لم يرق أمرُ الفئةِ الثانيةِ لصاحبِ الأريكة فسلّط عليها وحداً ممّن يأتمرونَ بأمرهِ، تطول قامتهُ حتّى يغيبَ رأسه بين السّحابِ. هَالَ فاراجي عظَمُ أقدامه التي راحَ يرفعها عالياً ويدهسَ بها القطرات الفارغة وهي تسعى جاهدةً كي تنجو بنفسها من السّحقِ فيفلحُ أغلبها ولا يهلك منها إلّا شيء يسير.

أثارَ الأمرَ روعَ الصّبيَ، فانطلق مبتعداً وأمعنَ السّيرَ حتّى انتهى عند فسحةٍ منبسطةٍ وقد عجّت بمخلوقاتٍ لا حصرَ لها، تتمايزُ زرافات. لمحَ جماعةً تلتئمُ تارةً وتنفضُّ أخرى، فشغلت بالهُ. يمّمَ صوبها حتّى أشرفَ عليها.كان في وسطها تلٌّ يقفُ أعلاهُ ذو الرداء وقد تحلّق الجمع حوله. دنا منهُ حتّى صارَ يسمعُ ويرى ما يشغلهم به. أدركَ من كلامه قولهُ،

- من يريدني خادماً لهُ، أريهِ ما لم يرَ وأسمعهُ ما لم يسمع.

تقدَّم نحوه فردٌ من الجمع وقال،

- أبْدِ ما عندكَ، فإن راقني أمركَ أخذتك.

عندها هزّ ذو الرداء يدهُ وأشارَ إلى شجرةٍ تيبّست أغصانها.

- أترَ حالَ هذه الشّجرة؟ فإني إن شئتُ أبديتُ لكَ من حالها ما لا تراه.

ثمّ رفعَ رداءهُ بحذائها فصارت أوراقها تظهرَ لعين الرائي مُخضرّةً، و إذا الطّيور على أغصانها تصدحَ. فلما تيقَّنَ ذُهولَ الجمع لما فعلَ، لمّ رداءهُ فانجلى ما يرونهُ وإذا الشجرةُ على حالها من التيبس. استفزه الطّرب وظنّ أنّ من تقدّمَ إليهِ سيقبلُ بهِ خادماً، غيرَ أنَّه فوجئ به يبتعدُ قائلاً،

- حسبتكَ تجعلُ اليابسَ أخضراً، أمّا والأمرَ لا يعدو رداءكَ فلا حاجةَ لي بك.

ثمّ انفضَّ الجمعُ فما منهم أحدٌ يريد أن يقبلَ استخدامَ ذو الرداء، الذي جثا على الأرضِ يركبهُ الغمَ. ثمّ أنَّهُ قام وأعادَ مقالتهُ كرّةً أخرى فتحلّقَ حوله جمعٌ جديد. عندئذٍ رثى الصّبيَ لحاله ويأسَ من مآلهِ إلى ما هو أجدى، فهمّ بالذّهاب لولا أن رأى صاحبَ البثورِ يُقبلُ على الجمعِ فيفضّهُ عنوةً ويأخذ بيدِ ذي الرداء، قائلاً أنّه وجدَ من يصلحَ له سيّداً.

انطلقا إلى ربوةٍ والصّبيَ في أثرهما حتّى انتهوا جميعاً إلى موضعٍ يقفُ فيه ذو القدمينِ العظيمتينِ وقد غاب رأسهُ في السّحاب، يُسمعُ لهُ نحيبَ ولا تُرَ لهُ دموع. سألهُ صاحبَ البثورِ أن يُعيدَ عليه شأنهُ، فأخبرهُ أنَّ صاحبَ الأريكةِ غضبَ منه لأنَّه كلّما أمرهُ بدهسِ المارقينَ فاتَ عليه إدراكُ جُلّهم ولم ينل إلّا ممّن تقاعسوا عن احترازِ موطئ قدميه. حينها بشّرَهُ صاحبَ البثورِ أنَّهُ قد جلبَ له خادماً يسوقُ المارقين إلى قدميهِ سوقاً، ثمّ همسَ لذي الرداء بشيء قبلَ أن يصيحَ،

- يمكنكَ أن تجربهُ إذا شئت.

تحرّكوا جميعاً حتّى بلغوا موضعَ شرذمةٍ ممّن أمرَ صاحبَ الأريكةِ بعقابهم، وقد جعلوا يتفرّقونَ في السّبل هرباً من بطشِ ذي القدمين. بَسَطَ لهم ذو الرّداء رداءهُ وصوّر لهم النّجاةَ في طريقه، فطفقوا يهرعون إليه وهو يُسلمهم إلى الأقدامَ تسحقهم خلفهُ، حتى لم يبقَ منهم أحد. عندئذٍ ملأ الزّهو صاحبَ البثورِ لحسنِ تدبيرهِ وأنشأ يقولُ،

- ها قد أصبحَ الكذبُ خادماً للخوفِ فاكتملَ أمرهما معاً!

ثمّ ولّى مدبراً يعجبُ لقلّةِ حيلةِ من ألجأهُم جزعُهُم إلى التماسِ النَّجاةِ في رداء بالٍ.

جُرْفٌ سَحِيق

عندما استعادَ فاراجي وعيهُ بالكاملِ، كان وجهُ العجوزِ يشعُّ حيويّةً وقد انكبّ يُجردُ ملاحظاتٍ على سجلّه. انتبهَ لاستفاقة الصّبي، فتركَ الكتابةَ وأحضرَ له كوبَ ماء والكلماتُ تنسابُ من فمه بغبطةٍ مفعمة.

- - وأخيراً نجحنا أيّها الفتى!... أيّاً كانَ ما رأيتهُ في خيالاتك، فإنَّ موجاتِ الشَّحنِ استخدمت تردّداتٍ خاصّةٍ بذكرياتك كي تتراكبَ بتوافقٍ تامٍّ مع الموجاتِ الدِّماغيّةِ... إنَّها معجزة!

كان بالكادِ يتحكَّمُ في اختلاجاتِ ملامحِ وجههِ وهو يصفُ روعةَ ما حقَّقه. لكنَّ الصّبيَ لم يزد عن رسمِ ابتسامةٍ ذاويةٍ وقد نالَ منه الإعياءَ فوق ما اعتاده في المرّاتِ السّابقة. اقتضى الأمرَ منه زمناً حتّى استطاعَ أن يلبّي رغبةَ العجوزِ الـمُلحّة بسردِ تفاصيلِ حلمه الهُلامي. كانت أصواتُ التّعجّبِ تندُّ عن الرّجل وقد تملّكهُ انفعالٌ غامرٌ، قبل أن يخلصَ في النّهاية إلى القولِ،

- - لا مزيدَ من المدارسِ بعد اليوم!... إشحن وانطلق!

راحَ يردّدُ عبارتهُ الأخيرةَ لكأنَّه عثرَ على شعارِ إنجازهِ العظيمِ، ثمّ أردفَ مبتهجاً،

- - الآن في وسعي أن آخذكَ إلى أيّ مكانٍ تريده!

سُرَّ الصّبيّ لسماعِ ذلك وبالكاد وسعهُ انتظارُ العجوز ريثما يهيّئ نفسهُ لمرافقته. خرجا من بين التّلالِ وقد مالَ قرصُ الشّمس إلى المغيبِ. أزمعا قطعَ المفازةِ سيراً وصولاً إلى الطّريقِ المعبّدِ، بيدَ أنهما توقّفا على بُعد خطواتٍ قليلة وقد لمحا سيارةً تنهبُ الفلاةَ بعجلاتها يتعالى الغبارُ خلفها. كانت لا تزالُ بعيدةً

بعضَ الشّيء، لكنّها تتقدّم صوبهما بسرعةٍ جنونيّة. تراجعَ العجوزُ وقد ركبهُ الرّوعُ. سحبَ يدَ فاراجي عائداً به إلى مدخلِ المغارة، أين راحَ يرقب القادمين متوجّساً. جحظت عيناه وهو يرى السّيارة تتوقّفُ على مسافةٍ قريبة. كانت سيارةَ رجالِ الدَّرك. نزلَ أربعةٌ منهم وبرفقتهم امرأة طفقت تُكلم أحدهم منفعلةً وهي تشيرُ صوبَ المغارة. صاحَ فاراجي مشدوهاً،

- - أمّي!

قال ذلك وانتبهَ إلى وجهِ العجوزِ الذي اعتراه الفزعُ وجعل جبينهُ يتفصّدُ عرقاً.

- - أوه!... ليس وأنا أحقّقُ حُلمي أخيراً!

غمغمَ بذلك وحثَّ الصّبيَ على اللّحاقِ به إلى الدّاخلِ. تناهت إليهما تهديداتُ الدَّركِ عبر مكبّرِ الصّوت مشيرةً بضرورةِ الاستسلامِ. ما إن وصلا إلى فسحةِ المختبرِ حتى غابِ العجوزُ للحظةٍ قبل أن يعود بوعاءينِ وشرعَ يُفرغ الوقودَ على الأريكة، وعلى الشّاشة والحاسوبِ ثمّ رشَّ ما تبقّى في أحدهما هنا وهناك. حملَ سجلّهُ واعتصرهُ بين يديه. قلّب نظراته التّائهةِ في أرجاء المكان. استقرت عيناه على محفظةِ الصّبيَ، فطلب منه فتحها ووضع بداخلها السّجلّ. خاطبهُ بشفتينِ مرتعشتينِ،

- - لا يجبَ أن يقعَ هذا بين أيديهم!... حتّى لو أمسكوا بي، عليك أن تتصرفَ وكأنّهُ غير موجودٍ... أتفهم!؟ سأستعيدهُ منكَ لاحقاً.

قالَ ذلكَ بصرامةٍ حاسمةٍ، قبل أن يردفَ مُتمتا،

- - لن أسمحَ لهم بسرقةِ أفكاري مُجدَّداً!

أدركَ فاراجي أنَّ الأشخاصَ الذين طالما تحدَّثَ العجوز عن رغبتهم في سلبه ابتكاره لم يكونوا سوى رجالَ الدَّرك. لم يدعَ له العجوزُ مجالاً للاستفسار عن أيَ

شيء، فقد أمرهُ بسحب دراّجته في أحدِ الممراتِ واستباقه بالخروج عبر مغارة تُفضي إلى الوجهةِ الجنوبيةِ للتّلال. نفَّذَ ذلك مُغالباً آلامَ يدهِ المحترقةِ وقد جعلت الرَهبةُ تبثُّ الارتعاشَ في أوصاله. وصلَ إلى فضاء رملي وانتظر للحظاتِ قبل أن يلتحقَ به العجوزُ طالباً منه الركَّضَ بأقصى ما يستطيع.

في الجهةِ الأخرى، وقفت العالية تضيقُ ذرعاً بتلكُّؤ قائد الدَّرك في إصدارِ الأمرِ باقتحامِ المغارة. كانت قد اهتدت إلى فكرةِ الاتِّصالِ بهم بعد أن ظلَّت تتآكلها التّهيؤاتُ المفزعةُ. خطرَ ببالها أن تجازفَ بالدُّخول لإنقاذ صغيرها، لكنَّ تخمينها بأنَّ وسط التِّلال أشخاصاً آخرين ثبّطَ عزيمتها. خشيتَ أن تعجزَ عن إنقاذهِ ويكون تورّطها سبباً لإلحاقِ الأذى به وربما اختطافه إلى مكانٍ آخرَ لا تعرفه. ظلَّت تستهجنُ سوء تصرّفها بعدمِ إيقافهِ قبل حدوثِ ما حدثَ، ثمّ قرّرت في النّهاية الانطلاقَ بأقصى ما في وسعها كي تستدعيَ الدَّرك.

مع بدء حلولِ الظَّلام، كان قائدُ الدَّركِ منشغلاً بتمعّنِ الآثارِ على التّرابِ علّهُ يكتشفُ عددَ المجرمين. بدا منزعجاً من ثرثرةَ المرأةِ التي انخرطت في التّذمرِ، فأمرَ رجالهُ بإبعادها عنه. فجأةً دوّى انفجارٌ هزَّ الأرضَ من حولهم وشرعت الأدخنةُ تنبعثُ من أقرب التِّلال. تشتَّتَ أعوانُ الدَّركِ لهولِ المفاجأة وارتسمت على وجه العالية ملامحُ مروّعةٌ. حاولت الوقوفَ بثباتٍ وساقاها تصطكّانِ، قبلَ أن تصرخَ وتهرعَ راكضةً صوبَ المكانِ الذي رأت ابنها يغيبُ عندهُ آخرَ مرّة. جهدَ الأعوانُ في اللّحاقِ بها، وأفلحَ اثنانِ منهم في سحبها بعيداً وهي تُطلقُ عويلها وتبكي بحرقةٍ بالغة.

انشغلَ القائدُ ومعاونه باستطلاعِ مصدرِ الدَّخانِ وتوغلا داخل التّلِّ. اقتضى الأمرَ منهما زمناً قبل أن يكتشفا، عند مخرجِ مغارةٍ خلفيةٍ، آثارَ أقدامٍ بحذائها ما يشبهُ آثاراً مموّهةً لدراّجة. كانت السّماءَ قد بدأت تُعتمُ، فطلب القائد الدَّعم من مفرزتهِ عبر اللاسلكي وأمرَ بالتفافِ السّيارةِ حول التِّلالِ لاقتفاء الأثرِ. كان يدركُ أنَّ الهاربين يسبقونهم بمسافةٍ لا يسعفهم معها التَّأني. ما إن ركبَ السّيارةَ حتّى أمرَ ببذلِ أقصى سرعةٍ ممكنةٍ. بعد حوالي نصف ساعةٍ تراءى له في سوادِ القفرِ

الممتدِ أمامهُ ضوءَ صغيرَ باهتٌ من بعيد. صاحَ بسائقه،

- عليكَ بالضَّوء!

بيدَ أنَّ الضَّوء انطفأ بعدَ برهة. بلغت السّيارةُ أرضاً صخريّةً لا يتبيّنُ عليها الأثر. ثارَ سخطُ القائد وأمرَ بالإسراعِ أكثر، معتقداً أنَّ راكبَ الدَّرّاجة أطفأ ضوئها لتضليلهم وأنَّه قد يلجأ إلى التّخفي تحت جنحِ الظّلام فيعسرَ العُثورُ عليه.

زادت سرعةُ السّيارة بشكلٍ جنونيَ لفترةٍ وجيزة، قبلَ أن تُصوّتَ مكابحها عالياً وتلتفَّ حولَ نفسها. انفجرت إحدى إطاراتها وهي على بُعد خطوات فقط من جرفِ صخريَ. لم يصدِّق القائدُ أنهم نجوا من السّقوط. ترجّلَ حاملاً مصباحهُ اليدويّ وسَلّطَ الضوءَ إلى الأسفل. كان الجُرفُ سحيقاً. أرهفَ معاونهُ السّمع وقد تناهى إليهِ أنينٌ مكبوتٌ. نزلَ يستطلعهُ، ليجدَ الدَّراجة محطّمةً بعد أن هوت من أعلى الجرفِ. كان منظرَ جسدِ العجوزِ النّحيلِ غارقاً في دماءه أقربَ إلى حساء عظامٍ، بينما تكوّم الصّبيَ على نفسهِ كالخرقةِ وهو لا يزالُ يُصدرُ أنيناً متقطّعاً.

نَبْضُ الحُلُم

ظَلَّ فاراجي لأيّامٍ عدَّةٍ في حالةِ غيبوبةٍ شبه تامّةٍ بجناحِ العنايةِ المركّزة في مستشفى المدينة. كان أوّلُ ما رآهُ وسطَ غلالةٍ ضبابيةٍ حينَ فتحَ عينيه أخيراً هي الزّرقةُ التي تعمّ المكان. كانت ذراعهُ اليسرى وساقاهُ قد لُفتا بالجبس. نُقلَ بعدها بيومينِ إلى غرفةٍ خاصّةٍ وقد تحسّنَ وضعهُ. علمَ من أمّه التي لم تكن تفارقُ مقعدها قربَ سريرِه أنَّ سقوطهُ كان مُميتاً وأنّهُ نَجا بأعجوبةٍ. تبادرَ إلى ذهنه وقد ارتدَّت إلى ذاكرته تفاصيلُ الحادثِ، أن يسألَ عن العجوزِ، بيدَ أنّهُ لم يجد إجابةً عن سؤاله. اكتفت العالية بالقولِ أنّه مجرّد مجرمٍ نالَ جزائهُ ولم تزد على ذلك شيئاً. لم يستطع منعَ نفسه من التّخمين بشأنِ الجزاء الذي تحدَّثت عنه، لكنّه لم يجرأ على سؤالها مرّةً أخرى.

زارهُ مديرُ المدرسةِ رفقةَ أستاذين. قال أنّه لا يسعهُ أن يغفلَ عن زيارةِ تلميذه النّجيبِ، ثمّ سلَّمَ العالية هديّةَ ابنها كي تفتحها. اعترت فاراجي دهشةُ السّرورِ وهو يشاهدها تفتحُ العلبةَ وتستخرجَ منها طائراً زجاجياً شبيهاً بطائرِه الذي تحطّمَ. امتزجت فرحتهُ مع إحساسِ غريبٍ بالخواء. جعلَ يتأمّلُ الألوانَ المتداخلة. شيءٌ ما فيها كان يذكّرهُ بضحكات عَيدَه.

في ظهيرةِ اليومِ ذاته زارهُ دركيان. جفَّ حلقهُ لمرآهما. تحدَّثا مع العاليةِ همساً للحظاتٍ قبلَ أن يشيرا عليها بترك الغرفةِ. اقتربا منهُ واقتعد أحدهما الكرسي بجانبه، ثمّ عرَف نفسه على أنَّه ضابطُ درك. استبدَّ الجزعُ بالصّبي. لاحظَ الضّابطُ ذلك فحاولَ تهدئتهُ بالسّؤال عن حاله وكيف يقضي أيّامهُ في المستشفى. أجابهُ باقتضابٍ نافرٍ،

- أنا بخير!

أدرك الضّابطُ أنّهُ لن ينجحَ في مهمّته ما لم يكسب وُدَّهُ، فشرعَ يخبرهُ أنّهُ ما من داعٍ لارتعابه، وأنّهما لم يحضرا إلّا ليَستقيا منه بعض المعلوماتِ عن الرّجلِ الذي كان بصُحبته.

- هناكَ سِرّ خطيرٌ سأطلعكَ عليه!

قالَ الضَّابطُ ذلك وسكتَ لبرهةٍ قبلَ أن يُردف زاعماً أنَّ العجوزَ كان باحثاً مرموقاً بإحدى الجامعات ولكنَّهُ اختلَّ ذهنياً وأغلقَ على نفسه في مختبره المنزلي شهوراً متوالية راحَ خلالها يقتل القططَ والكلابَ ليَجريَ تجاربهُ على أدمغتها. اكتشفت الشُّرطة أمره فاعتقلته ووُضعَ لاحقاً في مصحَّةٍ عقليّة، لكنّه لاذَ بالفرارِ بعد مدَّةٍ واختفى دونَ أن يترك أثراً.

- إنَّه مختلٌّ عقلياً!

كانَ فاراجي يداخلهُ الرّيب فيما يسمع، وجعلَ يستعيدُ بخلده ما قالهُ العجوزُ عن سرقةِ ابتكاره وعن فراره من السّجن. شعرَ بنفورٍ بالغٍ حيالَ الدَّركيِّ ولم يستبعد أن يكونَ كلامهُ مُجرّدَ تلفيقٍ واستدراجٍ كي يكشفَ لهُ عن سِرِّ آلةِ الشَّحنِ الدِّماغي.

- منَ الضَّروريَ جدَّاً أن نعرفَ ما كنتَ تفعلهُ بصحبته في ذلك المكانِ المنعزل، وكم دامت مُدَّةُ اتصالك به؟

قالَ الضَّابطُ ذلك بحزمٍ وبدا للصّبي أنَّ نظراته الفاحصة لا تزيدهُ إلا انقباضاً منه. صرّحَ أنَّهُ لا يعرفُ عن الرّجلِ شيئاً وأنَّهُ كانَ يحاولُ اصطيادَ العصافيرِ عند التّلالِ حين التقى به. لم يقتنع الدَّركيُّ بردِّه، لكنَّ كلَّ محاولاته التّاليةِ عجزت عن كشفِ الحقيقة. ظلَّ فاراجي مُصراً على أنَّه لا يعرف أبداً ما كان يفعلهُ العجوز. حينَ علمَ بوفاته في الحادث انتابهُ حزنٌ غامرٌ وامتنعَ عن الحديثِ إلى الضَّابطِ بالمرّة، رغم تكررِ زياراته حتّى انقطعَ عن المجيء ولم يرهُ مُجدَّداً.

قبعَ في المستشفى قرابةَ شهر عادهُ خلالهُ جمعٌ غفيرَ من رفاقه الجدد، حتّى أنَّ صديقهُ رمضان زارهُ أيضاً بعد أن تعافى. كانَ الشَّخصُ الوحيدُ الذي تاقَ لرؤيته دونَ أن يحظَى بها هو عَيدَه. لم يستطع كبحَ اشتياقه لها حينَ سألَ صديقهُ متلكّأً،

- هل تلتقي عَيدَه؟

أخبرهُ أنَّها غادرتِ البلدةَ رفقةَ عائلتها بعدَ نهايةِ الموسمِ الدِّراسيَ. شعرَ بخيبةٍ كبيرةٍ راحت تستفحلُ بصدره بعدما أردفَ صديقهُ،

- اعتقدُ أنَّهم رحلوا نهائياً عن منزلهم، لأنَّ به الآن قاطنينَ جُدد.

أحسّ حينها بلسعةِ ألمٍ تركت ندبةً دائمةً في ذاكرته لسنواتٍ لاحقة. تمنّى لو

قابلها قبلَ رحيلها كي يعتذرَ لها، مع أنَّهُ ظلَّ يُحوَرُ قليلاً كلَّ مرةٍ فيما كان سيقولهُ لو التقاها فعلاً.

نزعَ الممرضونَ الجبسَ عن ذراعه وساقيه قبيلَ خروجه من المستشفى بأيّامٍ، وراحوا يُخضعونهُ كلَّ صباحٍ ومساء لتمارينِ المشي بالعكّازات التي احتفظَ بها لأسابيعَ بعد عودته إلى البلدة.

علمَ من أمّه أنَّ المدرّسين عقدوا اجتماعا خاصاً بشأنه مع انقضاء السّنة الدِّراسية، طلبوا فيه إلى المدير أن يمنحهُ فرصة الدِّراسة في السّنة المقبلة نظير تميزه أيّاماً قبلَ الحادث وقد وافقَ المديرُ على اقتراحهم قائلاً، بعد أن أخذ نفساً عميقاً وهزَّ كتفيه تاركاً أصابعَ يديه ترتعشُ بحريةٍ كعادتها،

- سأسمحُ له بذلك بدلَ الطَّرد. لقد أظهرَ نبوغاً غير عادي وهو يستحقّ شرفَ إعادة السّنة! ألا تعتقدون ذلك؟

بعدَ أيّامٍ، كانت أغلبَ المعارفِ التي زودته بها تجاربُ العجوز قد اضمحلت من ذاكرته بشكلٍ كاملٍ. لم يظلَّ عالقاً بذهنه كالحلمِ سوى تلكَ القصّةُ الغريبةُ عن الغرورِ والكذبِ. تذكَّرَ السّجلَّ فسألَ والدتهُ عن محفظته. أخبرتهُ أنَّها احتفظت بها بعدما أعادها رجالُ الدَّرك. كاد يتوقَّفُ وجيبُ قلبه مفكّراً باختفاء السّجلّ، لكنّه عثرَ عليه في محفظته. كانَ متلهّفاً للاطلاعِ على ما كُتب فيه. خامرهُ اعتقادٌ بأنَّ العجوز وهو يسلّمهُ له قد عهدَ إليه بسرِ آلته. بيدَ أنَّ تلهّفهُ خبا وهو يقلّبَ الصّفحات المليئة بخربشاتٍ ورموزٍ يتخلّلها ما يشبه معادلاتٍ رياضيةٍ معقَّدةٍ لم يفقه منها شيئاً. حاول العثورَ على رسمٍ تفصيليٍ أو تصميمٍ لأريكةِ الشَّحنِ، لكنَّ الرّسوماتِ القليلةِ لم تكن سوى منحنياتٍ وُضعت إلى جانبها كتاباتٌ غريبة. صرفَ جُلَّ وقته في تقليبِ الصّفحات دون أن يفلحَ في فكّ رموزها.

عندما أصبحَ في وسعه المشيَ بحريّةٍ أكبر، صار يخرجُ إلى حيث لا يعلم أحدٌ ثم يعود صامتاً منكسراً. كان يستغرقهُ التّفكيرَ في كلِّ ما حدث. تعوّدَ الخلوّ بنفسه في عزلةِ الحقول وفي القفرِ الممتدِّ خلفها، يسرحُ ببصره متأملاً غروب الشَّمسِ بين طيّاتِ الرّمال، تتوارد على خاطره أسئلةٌ شتى. هل سيعودُ إلى سابقِ عهده، صبياً بليداً لا يحفلُ به أحد؟ هل يمكن أنَّ شخصاً ما في مكان ما يعرفُ كيف يعيدُ صُنعَ آلةِ العجوزِ؟ هل ستعودُ عَيدَة إلى البلدةِ يوماً ما ويسعهُ الاعتذارُ إليها؟ هل كان

خوفهُ من خسارتها هو ما دفعهُ إلى الكذبِ عليها؟ لم يكن يملكُ منعَ نفسهِ من التَّساؤلِ، دون أن يجدَ أجوبةً تُشفي غليله.

قرَّرَ يوماً زيارةَ أستاذ الرَياضيات الذي يقطنُ في حيَ مجاورٍ. وقفَ الأستاذُ عند بابِ بيته مستغرباً زيارةَ الصَبيَ ذو العكَّازينِ، وزادت دهشتهُ حين أعربَ له عن رغبته في استشارته بأمرٍ بالغ السَريَّة، ثمّ مدَّ إليه يدهُ بالسَجلّ قائلاً،

- كيفَ أفهمُ ما كُتبَ هنا؟

قلَّب الأستاذُ الصَفحات باضطرابٍ، تندَّ عنه عباراتُ التَّساؤلِ تارةً وتنشقلُ حواجبهُ في حيرةٍ تارةً أخرى.

- معادلةُ «شرودينغر» للمادَّة الحيَة!... خوذة؟ عن أيَ خوذةٍ يتحدَّث..

علَّق بصرهُ بالصَبيَ وسألهُ مستريباً،

- أين عثرتَ عليه؟

ارتبكَ فاراجي ولم يشعر كيفَ مدَّ يدهُ وكأنَّه يريدُ استعادةَ سجلّه.

- أريدُ فقط أن أعرفَ كيفَ أفهمُ ما كُتب...

أطلقَ الأستاذُ ضحكةً غريبةً وهو يعيدهُ إليه.

- لا أعلمُ عمّ تتحدَّثُ الكتابة، إنَّها تحوي معادلات فيزيائيَة وتفاصيلَ هندسيَة دقيقة، يقتضي منكَ فهمها سنوات من الدِّراسة على الأقل. ربما يتطلَّب الأمرَ أن تكون مهندساً في الإلكترونيات أو ما شابه ذلك...

شعرَ فاراجي بالإحباطِ يسكنُ صدره. انغلقَ على نفسه في غرفته أيّاماً وهو يقلِّبُ نظرهُ بين السَجلّ وبين طائرهِ الزّجاجيَ. كان الطّائرَ يذكِّرهُ بنبوغه الطّارئ الذي لم يعد يملك سبيلاً لاستعادته. تهيأ له أنَّهُ يشبههُ بشكلٍ ما. فكَّر أنَّ خيوطَ الألوانِ بداخلِه ترتبط برغبتهِ للنُّبوغِ، لكنَّه يعجزُ عن إدراك ذلك، مثلما يعجزُ هذا الطَّائرَ عن الخفقانِ بجناحيه. كان بحاجةٍ لأن يفعلَ شيئاً ما يماثل ما كانت تفعلهُ العصفورة في حلمه. أن يتخلَّصَ من بُقعِ نفورهِ المدرسيَ، التي تراكمت على مرَ سنوات. سألَ أمّهُ،

- كم من الوقتِ أحتاجَ كي أصبحَ مهندساً؟

نظرتْ إليه في حيرةٍ مطبقة، قبلَ أن تزمَّ شفتيها مخمّنةً،

- لا أعلم!... ربّما عشرَ سنوات.

قرَرَ لحظتها أن يُعيدَ صُنعَ آلةِ الشَّحنِ الدِّماغيِّ بنفسه يوماً ما. كان يُدركُ أنَّ الأمرَ سيتطلَّبُ منه جُهداً مُضنياً وزمناً طويلاً، حتّى يتسنّى لهُ الإفادةُ من السِّجلِّ وأنَّ عليهِ قبلَ ذلك أن يستدركَ ما فاتهُ إبّانَ سنواتِ خموله. لكنَّهُ أحسَّ لأوّلِ مرَّةٍ بشيءٍ يستحثُّهُ على التمسّكِ برؤيتهِ التي مَلَئَتْ عليه كيانه. بَدَا لهُ أنَّ صبياً أكثر صفاءً يُطلُّ من أعماقهِ ويدفعهُ إلى التّفكيرِ للالتزامِ بأشياء لم يكن يصطبرُ على فعلها يوماً.

-النهاية-

فهرس

القُصَاصَةُ الأَخِيرَة 5
التِّلالُ الصَّخرِيَّة.. 12
العَجُوزُ والأَرِيكَة 18
مَوجَاتُ الشَّحْن.. 27
فِيبُونَاتشِي 33
يَومٌ مُختَلِف.. 39
مَوعِدُ عَيْدَه 45
زِيَارَاتٌ غَرِيبَة.. 52
الكَابُوس.. 57
صَدْمَةُ التَّهَافُت 62
دَعْوَةٌ خَاصَّة 67
المَوْعِدُ والرِّسَالَة 72
حَادِثَةُ اللِّصّ 78
الطَّائِرُ الزُّجَاجِيّ 84
مَأْزَقُ العَالِيَة.. 90
مَعَارِفٌ مِنْ نَوْعٍ آخَر 96
هُلَامِيَات 101
جُرْفٌ سَحِيق 110
نَبْضُ الحُلُم 114
فهرس 119

«كانت أغلب قُصاصاتِ الورقِ التي قذف بها فاراجي عبر نافذته قد أسلمت نفسها لنسائم هزيع الليل، عدا واحدة ظلّت تلتفُّ حول نفسها على الطّريق الإسفلتي المقابل، تأخذها هبّة هواء لبرهة، ثم تعود لتكرّر التفافها و كأنها تُغريه بالمجيء معها. عندئذٍ التمعت بذهنه فكرة الهروب. لم يكن يملك أيّ ذريعةٍ تحضُّه للعدول عن فكرة غريبة كهذه. قدّرَ أنّه لم يعد ثمّةَ شيء يخشى فقدانه وأنّه غدا ناضجاً كفاية كي يسعه الرّحيل بعيداً. قد يجد بلدةً أخرى تفتح له ذراعيها و تمنحه حياة أقلّ نكداً. لم تقو لحظات تردّده القصيرة على الوقوف في وجه رغبته الطّارئة و أقنع نفسه أنّه كيفما ستغدو أيّامه حيث يذهب، فإنّها ستكون أفضل لا محالة...»


9 789931 593362

دار الأوطان

